الـرَّسّـامان

تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد

المشروع الوطني للترجمة

الرواية العالمية

الـرَّسّـامان

تأليف: داريوش عابدي

ترجمة: د. ندى حسّون

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٢م

العنوان الأصلي للكتاب:

نقشبدان

الكاتب: داريوش عابدي

الناشر : سوره مهر، ١٩٦٤

المترجم : د. ندى حسّون

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر (بالضرورةِ) عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

الفصل الأوّل

أحرّك عينيّ حولي بسرعة، كلّ شيء أبيض؛ أبيض أبيض. دون أيّ شكل أو صورة، دون أيّ خطّ أو علامة. لا خبر عن الأرض ولا عن السماء. لا أثر للجبل، ولا للصحراء. أسحب يدي كالفرشاة حولي، فيظهر رسم الصحراء. كانت أشجار النخيل المحروقة قد ملأت الجهة اليمنى. في الحدّ الفاصل بين أشجار النخيل والصحراء، تظهر خمس دبابات قد تلاشت بين الرمال. في الجهة الأخرى جبل بنّيّ قاحل قد أحاطت الغيوم السوداء بقمّته. الصحراء حقل من الألغام في الأرض المتصدّعة والملتهبة. نحن ثلاثة أشخاص؛ أنا، وعزيزي، وروحي. قد أضعنا خارطة الألغام. ينظر روحي حوله، يحفر عزيزي برأس حربة البندقيّة بعناد حول اللغم المضادّ للدبابات، وأنا واقف أنظر إليهما. أصبح رأس حربة البندقيّة صلباً ومتحجّراً. ربطت يدي اليمنى بكوفيّة روحي، كان روحي يدير رأسه نحونا.

- قلت: إنّهم قد وضعوا هذه الألغام من أجل التضليل!

أقول لنفسي، الآن سيتابع: «كونا منتبهين. يوجد مضادّ للدبابات في الوسط، حوله أربعة مضادّات للأفراد».

لا يتابع، أتحرّك هنا وهناك مضطرباً بلا هدف. منذ الصباح إلى ما يقرب من الظهر ونحن منشغلون بلا توقّف. بقي صفٌّ واحدٌ حتّى نصل إلى وسط الحقل، و بعدها ننتهي. خفّت الحرارة بعد الظهر.

اللغم المتفجّر جعله يضطرب، بعد خطوات عدّة، أخرجه روحي من رأسه من التراب. أصبح صدئاً وحسّاساً. لو فكّرت لحظة بالارتعاش سيقفز صمامه ونذهب كلّنا إلى السماء. يقطع روحي سلك الصمّام، يخرج الحسّاسات، يعطيني المادّة المتفجرة. خرج عزيزي من خلف الأرض المستوية وأخرج لغماً مضاداً للدبّابات، يقلّبه. يخرج مادّته المتفجّرة ويعطيني إياه.

- انتبه، لا تحرّكه!

أنظر إلى المواد المتفجّرة. لقد أصبحت لعبتنا في هذه الأشهر. شعور مؤذٍ يريدني أن أحرّكها، أغلق يدي. لكثرة ما تعاملت مع ألغام مختلفة بتّ أشعر أحياناً أنّها قد أصبحت جزءاً من وجودي.

يجفّف عزيز عرق وجهه بالكوفيّة المحيطة بعنقه.

- لو كانوا قد أحضروا واحدة من كاسحات ألغام الجيش إلى هنا، لَكنّا قد أنهيناها الآن.

يعلو صوت روحي:

- لا تتكلّم على شيء غير موجود.

الجوّ رطب وحارّ، كان كفّ يدي قد عرق وأخذ يلتهب. أفُكّ الكوفيّة. أصبح مكان الجلد المتسلّخ أحمر ومتورّماً. أقول بصوت عالٍ:

- سأذهب وأضمّد يدي.

أسمع صوت روحي:

- ضع المواد المتفجّرة خلف السيّارة.

وصوت عزيز:

- لا تنسَ برّاد الماء!

ألوّح لهما بيدي المربوطة وأتتبّع أثر القسم الممشّط، وأمضي نحو الشاحنة الموجودة في الجهة الأخرى من الحقل. أسير بهدوء خطوات عدّة. لقد اشتدّ التهاب يدي. أريد أن أصل بسرعة إلى الشاحنة، لم يبقَ للوصول إليها إلا القليل. أحثّ الخطا، أوسّعها، وأركض.

تفتح الحفرة التي أوجدت على أثر انفجار اللغم المضادّ للدبابات فمها أمامي، فأتردّد لحظة في أثناء الجري؛ أأقفز فوقها أم لا؟ أقفز، فأسمع صوت روحي وأنا ما أزال في الهواء:

- لا تركض!

يمتدّ الصوت في الهواء، يحتبس في رأسي. يدور في دماغي ويتكرّر حتى إنّي أسقط على الأرض في الجهة الأخرى من الحفرة. انفجار آخر يرفعني عن الأرض، ويضربني على الأرض. يتردّد صوت روحي في أذنيّ. تقفز يدي المربوطة بكوفيّة روحي إلى الأعلى والأسفل، يدي الأخرى قد تمزّقت. يندفع الدم، ويصبغ الأرض الجافّة. لا شيء يظهر من الدخان، جسدي كلّه حارّ. صرخة، لا تركض، لا تتركني.

- يا حسين!... أيّ بلاء جلبته لنفسك؟

إنّه روحي. حين أدير رأسي، أشعر بالألم. أئنّ بصوتٍ عالٍ.

- سيعود إلى الوعي!

يصل الصوت ولا يصل، أسمع ولا أسمع. أئنّ بصوت غريب كأنّه يخرج من عمق مظلم. أستطيع أن أشعر بوجودي، وحضور اليقظة الثقيل

المصاحب للألم يلفّ عضلات جسدي كلّها وعروقه، الملاءة التي غطّت جسدي تخرّش جلدي. أبتلع لعابي بصعوبة، يداي تتلاشيان أمام عينيّ. أريد أن أفتح عينيّ لأهرب من هذا الكابوس المرعب، لكنّ الخوف من اليقظة التي يمكن أن تكون استمراراً لهذا الكابوس يمنعني. إنّ فقدان يدَيّ يجعلني يائساً. يداي زاوية مظلمة، ولم تعودا قادرتين على الإبداع. ليت كلّ ما مرّ على رأسي يكون حلماً لا أكثر، ليتني كنت أستطيع أن ألمس وجهي وأراهما. هذا الألم الملعون يظهِر لي كلّ شيء، ويعرضه أمام عينيّ.

أصبحت خلايا جسدي جميعها أكثر حساسيّة وإدراكاً بالنسبة إلى ما يدور حولي. اقترب شخص منّي، إنّي أشعر بحرارة جسده ورائحة جسده. أشعر بالاحتراق.

- الآن سيهدأ.

لقد جفّ حلقي.

- ماء! ماء!

يُرفَع رأسي، أشعر بملامسة برودة الكأس لشفتيّ الجافّتين. أبتلع الماء البارد مع سائل فمي المرّ. لقد سلب الألم طاقتي.أئنّ بصوت غريب وغير مألوف، تداعب يدٌ ما جبهتي الحارّة بحنان فأغوص بهدوء شديد في ضباب رقيق وأُمحى.

الفصل الثاني

سحبت رأسي جانباً.

- صدّقيني أكاد أتقيّأ!

أمسكت أمّي الملعقة أمام فمي:

- لو أكلت هذه، سأدع الباقي إلى وقت لاحق!

لكثرة ما أطعمتني أمّي من الفاكهة المعلّبة خلال هذه الأيام، أصبحت أشعر بالغثيان من كلّ ما هو فاكهة معلّبة. وضعت أمّي علبة الفاكهة المعلّبة على الطاولة إلى جوار السرير، حرّكت الوسادة تحت رأسي ورتّبت الملاءة فوقي، ثمّ قبّلت جبيني ورتّبت شعري.

في هذه الأيام لم أرها ترتاح لحظة. كانت تتصرّف دائماً وكأنّ عملاً بقي على الأرض ولم ينجز، وهي تنتظر فرصة لتلتقطه. نظرت لحظة في عينيها، كانتا حزينتين ومبلّلتين، استرقت نظرة وابتسمت.

- عدت إليّ ثانية!

كنت أعرف أن أحاسيس مكبوتة ومستترة ستنهمر من وجودها بعد لحظة، ودون إرادة منها ستجري على لسانها. صمتُّ لتتابع على النحو الذي تريده هي.

جلست على الكرسي إلى جوار السرير.

- بعد وفاة والدك كنت أخاف دوماً أن أفقدك أنت أيضاً يوماً ما، وأصبح وحيدة إلى الأبد، حين كنت طفلاً كنت أحلم دائماً أن تكبر بسرعة لأبثّك شكواي، وحين تكون نائماً كنت أجلس إلى جوارك وأتحدّث إليك، حين ذهبت إلى الجبهة عاودتني تلك الليالي الملأى بالوحدة مرّة أخرى. كنت أعرف أنك يجب أن تذهب، لكن أيّ أمّ تهدأ بجملة «ينبغي ولا ينبغي» هذه؟.

كانت عيناها قد امتلأتا بالدموع، كنت أتمنّى أن آخذ رأسها بين يديّ وأحتضنها.

أخذت أمّي نفساً عميقاً. أخذت كأس الماء عن الطاولة وشربته وحدّقت بالكأس الفارغ.

كنت طفلاً حين مات والدي، كان حارس طريق القطار، كان يسير ليلاً إلى سكّة القطار حاملاً مصباحاً يدويّاً، وحقيبة ظهر مملوءة بأدوات العمل وزاد طريقه ليتفقّد السكّة الحديديّة حتّى المحطّة الأولى، فينظر فيما إذا كان السيل جرفها أو فيما إذا كان الجبل قد انهار فيخبر أقرب محطّة، فإذا اقتلع أحد البراغي من السكّة من مكانه، كان يثبّته من جديد.

في ليلة ضبابيّة، وحينما كان مشغولاً بتثبيت أحد براغيّ السكّة، وصل قطار نقل المسافرين وسحقه. كانت أمّي تقول إنّه كان بإمكانه أن يتنحّى جانباً لأنّه كان قد سمع صوت صافرة القطار قبل لحظات عدّة، لكنّه لو لم يكن قد أنهى العمل ونجا بنفسه، لكانت السكّة قد اقتُلعت من مكانها، ولسقط القطار بمسافريه جميعاً أسفل الهضبة.

كلّما كانت أمّي تتحدّث عن أبي، لم يكن بإمكاني أن أستحضر في ذهني ذكرى له أو صورة، مع ذلك حين كنت أنظر إلى صورته، كنت أشعر أنّي

قريب جداً من هذا الوجه ذي العظام البارزة وحبة السنة المتوضّعة على خده الأيسر، وتلك النظرة المتسمّرة.

بعد وفاة والدي، تقديراً له، وظّفوا أمّي في القسم الإداريّ لمؤسّسة السكّة الحديديّة لنحصل على راتب يسدّ رمقنا، ولتتمكّن من الإفادة من منازل المؤسسة أيضاً.

في تلك السنوات كنت في الثالثة منى عمري، لذا كنت أقفز تحت يد أمّي في الإدارة سنوات عدّة. بعد ذلك، حين دخلت المدرسة ارتاح بال أمّي. سمعت من المحيطين والجيران أنّ أشخاصاً كثيرين تقدّموا لخطبتها في هذه المدّة أيضاً، لكنّها أجابت الجميع بالرفض. عوضاً عن ذلك حاولت ألّا يختلف مستوى المعيشة عمّا كان عليه حين كان والدي لا يزال حيّاً.

كانت تبدو، وهي تحدّق في الكأس، مسنّة ومنكسرة أكثر. كانت عيناها الغائرتان والتجاعيد المتوضّعة على جبينها تظهرها أكبر سنّاً. كلّما كنت أذهب إلى الجبهة كانت تلوذ بالصمت. كنت أعرف أن الحياة تمرّ عليها بصعوبة في غيابي. كلّما كنت أبعث لها رسالة كانت ترسل إليّ الأجوبة في صفحات عدّة. كانت تكتب لي عن كلّ شيء؛ عمّا كان يحدث معها في الإدارة، عن مناماتها، عن كلام الأقارب والجيران، وفي النهاية كانت تعاتبني لِمَ أراسلها متأخّراً إلى هذا الحدّ وبنسبة قليلة.

وضعت الكأس على الطاولة وابتسمت، كأنّها كانت قد فهمت نظرتي. أرادت أن تقول شيئاً، فُتِح باب الغرفة. رتّبت (التشادور) على رأسها. سلّمت أمّي، فهزّ الطبيب رأسه وقال:

- أرجوك ارتاحي!

وأخذ الإضبارة من أمام السرير ونظر، رفع كمّيّ الخاليين واحداً تلو الآخر، ونظر بدقّة إلى جرح يديّ. أغمضت عينيّ. لم يكن تقبّل ذلك محتملاً بالنسبة إليّ. شعرت بيد الطبيب على كتفي.

- يجب أن تتقبّل واقع الحياة كبطل، وأن تتعايش معها.

كي لا يتابع هززت رأسي، لكن لم أقل شيئاً.

لم تكن مشكلتي هي الأبحاث الكلاميّة والمنطقيّة حول التعامل مع الإعاقة وعدم وجود عضو في الجسد، بحيث يمكن إقناع الطرف الآخر بأربعة أدلّة منطقيّة أو غير منطقيّة. كانت يداي هي كلّ شيء بالنسبة إليّ. كان الآخرون يعرفون هذا وكانوا يفهمون، لكن لم يكونوا يشعرون به. لم يكن أيّ عضو، بالنسبة إليّ، بأهمّيّة يديّ. من كان يدرك أنّي غير قادر على التفكير والإحساس واللذة والإبداع من دون يديّ.

- الجروح في طريقها إلى الالتئام والشفاء، انتبه فحسب ألّا تصطدم بمكان فينكأ الجرح ثانية.

كانت نظرته قد بقيت محدّقة إلى وجهي، لم أكن أريد أن يظنّ أنيّ قد وقعت ضحيّة العجز. كنت أحاول أن يكون في صوتي شيء من الفكاهة، فسألت:

- فلتفكّروا بكيفية تناولي للطعام، لو أمكن، في هذا الوضع سأبقى عالة على أمّي حتى آخر عمري.

ابتسم الطبيب:

- سيعطونك نوعاً من الملاعق يمكن أن تصلها بمرفقك حين تناول الطعام.

علّق الملفّ على السرير:

- طاب يومك!

و خرج من الغرفة.

- لقد حُلّت أعظم مشاكلي على هذا النحو!

لم تقل أمّي شيئاً. سحبت وسادتي إلى الأعلى ورتّبتها. سألت:

- أليس لديك أخبار عن رضا؟

هزّت أمّي رأسها:

- بلى!

أمسكت علبة الفاكهة المعلّبة بيدها. سحبت رأسي جانباً:

- أستحلفك بالله يا أمّي!

ضحكت أمّي:

- لقد فقدت كثيراً من الدم. يجب أن تعوّضه أو ماذا؟

- يا الله! السلام على الجميع!

لقد كان رضا. تكوّر جسدي تحت الملاءة، أصلاً لم تكن لديّ الرغبة في مواجهة كلّ ما كان له ارتباط بماضي الفنيّ. تسمّر رضا أمام الباب لحظات عدّة متعجّباً ومبهوتاً. كما لو أننيّ قد اضطربت. كان يبدو منفّراً بصورة سيّئة. نظرت أمّي إليّ بتعجّب نظرة غاضبة.

- ما أحسن ذلك سيّد رضا! عجباً كان الحديث عنك الآن. كان حميد يسأل عنك حين تفضّلت بالدخول.

هززت رأسي وعنقي.

- أستحلفك بالله تعال وخلّصني من هذه الفاكهة المعلّبة التي لا تنتهي.

دخل رضا الغرفة متردّداً. كان في يده كيس بلاستيكيّ أسود؛ وضعه إلى جانب السرير.

- السلام عليك يا أمّي! كيف أنت يا فاتح حقل الألغام؟ إن كنت مسبباً الإزعاج سآتي في وقت لاحق.

نظر إلى أمّي ثانية. نظرت إلى يديه بحسرة كبيرة دون قصد. كان قد طوّق أصابعه بعضها ببعض. قلت لأجعله يخرج ما في قلبه:

- أين أنت أيها الرجل الخارق! منذ ثلاثة أسابيع وأنا ملقى في زاوية المستشفى. هل كان يسبب لك العناء أن تأتي برهة قصيرة لتسأل عن حالي؟

كان لا يزال حائراً ومضطرباً، كأنّه لم يكن يعرف أيّ ردّ فعل يبدي. قالت أمّي:

- كنت فاقد الوعي عدّة أيّام، كان السيّد رضا دائماً فوق رأسك.

بكلام أمّي هذا، أخذ رضا نفساً جديداً وقال مباشرة:

- هذه اليد لا تحفظ المعروف يا أمّي! لو جعلت فيها عسلاً ووضعتها في فمه لعضّها. هذا واضح من تعامله، كأنه رأى عزرائيل، هذا أيضاً واضح من كلامه. بالتأكيد سأترك هذا كلّه لطيب أصلي!

ألصق وجهه بوجهي وقبّل وجنتيّ:

- أنا المخلص لك جدّاً!

قبّلت وجهه. قالت أمّي:

- عزيزي حميد! سأذهب لأمرّ على الإدارة. سأعود بعد ساعة أو ساعتين. وداعاً سيّد رضا!

رفع رضا وجهه:

- مع السلامة يا أمّي!

خرجت أمّي من الغرفة، جلس رضا على الكرسيّ وحمل علبة الكرز المعلّب عن المنضدة الصغيرة:

- ألا تأكل؟

قلت ضاحكاً:

- لتناول الفاكهة المعلّبة من يدك لذّة كبيرة.

وضع في فمه بضع كرزات بالملعقة.

- الطموح ليس مأخذاً على الشباب... لِمَ اضطرب شكلك حين وقعت عينك عليّ؟ أرأيت جنّيّاً؟

قلت ضاحكاً:

- من التعجّب، فقد سمعت أنّك جليس البيت وأنّك دائماً تئنّ وتتأوه انزعاجاً.

شرب ماء الكرز المعلّب ووضع العلبة الفارغة على السرير:

- حزناً على الابتعاد عن من؟ عنك!

رفعت كتفيّ:

- ألم يكن من المقرر أن تأتي؟ كنت أنتظر حتى آخر لحظة.

مسح بيده على وجهه النحيل ذي العظام البارزة:

- يمكن العثور على العشق في كلّ مكان؛ سواء في الجبهة، أم خلف الجبهة. يجب أن يكون لديك عشق خالص فحسب، وإلا ستتخلّف عن المعركة.

- الآن إلى أين وصلت بنظرتك العاشقة؟

رتّب شعره:

- الآن كلّ شيء يسير على ما يرام، لأنّي قد وعدت ألّا أدور حول الجبهة ثانية، فوافقوني.

حدّق في وجهي لحظة، ثمّ حدّق في الكأس الموجود على الطاولة.

- لكن الحقيقة أنّي أشعر من صميم قلبي أن هذا الوضع غير دائم. أخشى...

قطع كلامه، سحب يده على الحافة الحديديّة للتدفئة المركزيّة، نهض من مكانه فحركت يديّ تحت الملاءة دون إرادة منّي. لذلك قلت شيئاً ما، قلت:

- تلك كلها تصوراتك. إنك ترى النصف الخالي من الكأس دائماً. هل تذكر في كردستان؛ حين كان من المقرّر أن نهاجم هضبة الحياة على مقرّ(كومله)؟ كنت تقول إنّنا سنهزم.

قال بلهجة متحيّزة:

- لأنّ أحداً لم يكن قد أخبرني شيئاً عن القوى المتسلّلة.

صمت وتابع باعتراض:

- كم تصرّ على القول إني متشائم، أتظنّ أنّي لا أحبّ أن ينتهي كلّ شيء على نحو جيّد؟

كان قد أصبح عصبيّاً. تنهّد. مسح بيده على وجهه. تابع بلهجة كان يحاول أن تكون هادئة:

- أنت تعرف كم يحبّ أحدنا الآخر، بحيث إنّ أباها وأمها أيضاً أُجبرا على الموافقة على ما نفعل. حتى إنه من المقرر أن يهيّئوا لي محلاً لأعتني برسومي ولوحاتي ببال مرتاح.
- ما مشكلتك إذن ؟

ذهب نحو النافذة وعاد:

- لا أعلم لِمَ أنا دائم القلق؟ أخاف أن يضطرب نظام هذه الظروف الجيدة التي هيّئت لي كلّها... أصلاً لا أعرف لِمَ أقول لك هذه الأشياء. مثلاً أتيت لزيارتك، لكن حمّلتك همومي وتحدّثت عن نفسي الوقت كلّه.

انحنى وقبّل وجهي:

- حين ذهبت كاد قلبي ينفجر بسبب حماقتي، لكن تأكّد أنّي مهما فعلت لم يتيسر لي المجيء.

نظر إلى ساعته:

- يجب أن أذهب الآن!

قلت: «إن دعوتني لعقد قرانك سآتي بالتأكيد».

ضحك، انحنى ثانية وقبّل وجهي:

- أنا المخلص لك. أيمكنني أن أقرّر دونك؟

ودّعني وخرج من الغرفة.

كنت رفيقاً لرضا منذ الطفولة، كنّا نذهب إلى المدرسة نفسها، وكنّا حميمين. لم يكن لدينا القدرة على الابتعاد بعضنا عن بعض لحظة أبداً، كأنّنا كنّا روحاً في جسدين، ربّما من أجل ذلك كان الأولاد قد جمعوا اسمينا ليصبح اسماً واحداً، فكانوا يقولون: حميد رضا.

كان في الخامسة من عمره حين توفيت أمّه في أثناء الولادة، تزوّجت أخته أيضاً بعد سنوات عدّة وبقي ووالده وحيدين. أذكر أنّي كنت في السنة الأولى من المرحلة الإعداديّة حين ذهبت إلى دورة الرسم، كان هو أيضاً قد سجّل في الدورة معي حينها. فهمت وقتها أنه يمتلك موهبة جيّدة في الرسم. بعد أن حصلنا على الثانويّة أقمنا مرّة معرضاً للرسم في الصالة الكبرى لثانويّة السكة الحديديّة معاً، ومرّة بصورة منفصلة. كانت أعمالنا الأولى هي رسم الوجوه والمناظر. كنّا ننظر إلى موضوع العمل بعين مصوّر فحسب. لم تكن قد وجدت فينا الجرأة التي تدفع حسّنا وذهننا إلى التدخّل في الرسم. هذا فهمناه من إبداء زائري المعرض وجهات نظرهم. كان أغلب الناس يبدون إعجابهم بالرسوم، لكنّ أولئك الذين كانوا أصحاب الرأي كانوا يضيفون هذا أيضاً: «على الرغم من أنّ الدقّة في الجزئيات والاختيار المناسب للألوان في إظهار الوجوه والمناظر الطبيعيّة قد نفّذت بمهارة تامّة، إلا أنّ اللوحات لا تختلف أبداً عن أيّ صورة». كان الإشكال يكمن في الأسلوب الواقعيّ الذي كنّا قد استخدمناه، والذي أدّى إلى أن نجعل من نفسينا أسيري الواقعيّة التي كان لها حضور يبدو صلباً وغير قابل للانعطاف خارج ذهنينا. في المرّة الأولى التي ذهبنا فيها إلى الجبهة معاً أوجدت تغييرات كثيرة في وجهتي نظرينا، وتعاريفنا، واختيارنا للأسلوب. كان يدور الحديث

في الجبهة عن مسائل متعلقة بعالم الغيب وما وراء الطبيعة بشكل عاديّ وطبيعيّ تماماً، بحيث إنك لو رفعت رأسك إلى الأعلى قليلاً يمكن أن تراه بسهولة. حين عدنا، كنا نتباحث معاً باستمرار لنصل إلى أسلوب ونظرة جديدين في بيان المسائل المتعلقة بالجبهة. كنّا نظنّ أنّنا يجب أن نطالع أكثر حول هذه المسألة، ووصلنا إلى نتيجة مفادها أنّه للوصول إلى لغة وأسلوب يمكن أن يظهر فيهما الفضاء المعنويّ للجبهة جيّداً لا بدّ من أن يكون لنا، كلينا، حضور أكثر هناك. في المرّة الثانية التي كان من المقرّر أن نذهب فيها إلى الجبهة معاً تعرقلت خططنا جميعها.

قبل الإرسال بأسبوع كان رضا قد أقام معرضاً لأعماله الجديدة، وفي الوقت نفسه الذي كان من المقرّر فيه أن نجهّز نفسينا للتحرّك سمعت منه أنّه قد أصبح عاشقاً. عشق امرأة لم نكن نتوقعها. كان قد أحبَّ ملينا، ابنة مهاجر روسيّ، حسب ما كنت قد سمعت، كانت قد أتت مرّة أو مرّتين إلى معرض الرسم وأمطرته إعجاباً ومجاملة بشكل كبير. كانت قد أحضرت معها أصدقاءها وأقاربها مرّات عدّة أيضاً. الخلاصة أنها فعلت ما يجعل رضا يعشقها عشقاً جارفاً. كان جدّ ملينا قد فرّ مع عدد من الأشخاص من روسيا في أثناء ثورة أكتوبر، وكان قد بقي هنا. كانوا يقولون إنهم كانوا قد اعتنقوا الإسلام أيضاً كي لا يتدخّل أحد في شؤونهم، وليستجدوا عطف الناس. كانوا قد تمكّنوا، بالذهب الذي أحضروه معهم، من أن يصنعوا لأنفسهم أملاكاً. وبعيداً عن أعين الحكومة السوفييتية أصبح وضعهم جيداً جداً. بعد وفاة جدّها بدأ والدها بتبديد الثروة إسرافاً وتبذيراً حتى بقي له بعد سنوات عدة قطعة أرض صغيرة لا غير، استطاعت أن تنجو بعد الثورة من هيئة التأميم، وبقي لهم محلّ

كبير لبيع قطع تبديل السيارات. كان لملينا أخَوان، لكن لم يكن هناك خبر عن ذكور في باقي أفراد أسرتها، كانت هذه المسألة تعدّ فاجعة بالنسبة إليهم إذ إنّه طوال خمسين أو ستين سنة كانوا قد استطاعوا أن يأخذوا أبناءهم بسبب شبهات عدّة. حين سمعت قضية رضا لم آخذ الموضوع على محمل الجدّ لأنّي كنت متأكّداً من أنهم لن يرضوا بإتمام هذه المصاهرة بسهولة. لذا، حين ذهبت إلى الجبهة بمفردي كنت أتوقّع في أعماق قلبي أن يسمع جواباً بالرفض وأن يأتي صفر اليدين لكن عينيّ ملّتا الانتظار في الطرق المؤدية إلى حقل الألغام ولم يصل خبر من رضا.

كان ظهري قد تصبب عرقاً، تحرّكت في مكاني. آلمتني يدي فجأة. انتقل الألم إلى قرب صدري. حبست أنفاسي في صدري، لم أجرؤ على إخراجها. هدأ الألم قليلاً، لم يكن هناك خبر عن الممرّضة. أمسكت بأسناني القسم الأعلى من الوسادة وسحبت نفسي إلى الأعلى بحيث أستطيع الجلوس على السرير بسهولة. تركت نفسي على الوسادة. حدّقت في السقف، كان شبيهاً بقماشة الرسم. كي أنسى الألم، حاولت أن أرسم خطوطاً فوقها بعينيّ، وأن أمزج الألوان. كنت أستطيع أن أعمل أفضل بعينين مغمضتين. كان قلبي قد انفطر من أجل الرسم. ليتني كنت طلبت من أمّي أن تحضر لي أدوات الرسم. تحركت في مكاني، فآلمني جرح يدي. وضعت يديّ الناقصتين أمام عينيّ، فجعلتا وجودي كلّه مملوءاً بشعور النقص والخواء. كنت قد جرّبت هذا الشعور مرّات طوال حياتي، وكنت أحاربه. كلّما كنت أُهْزَم في أمر ما أو أخسر شيئاً ما كنت أشعر أني أستطيع أن أنتصر، بهذه الطاقات والقدرات التي أمتلكها، على ذاك الانكسار

والنقص. كانت درجاتي المتدنية في الثلث الأول مصحوبة دوماً بدرجة العشرين في الثلث التالي. كان قد حدث مرات أن استطعت، مقابل الأشياء التي كنت أفقدها، أن أحصل على شيء أفضل بجهد أكبر، لكنّ القضية هنا تختلف الآن، فقد كانت يداي حياتي كلّها. كنت قد فقدت حياتي كلّها دونهما. كُمّان خاليان من اليدين، الكمّان اللذان لم أكن أستطع أن أصدّق خواءهما. حاولت ألا أفكّر بشيء. لا أعلم كم مضى من الوقت، فتحت عينيّ. كانت أمّي.

- هل أيقظتك؟

- لم أكن نائماً.

- ظننت أنّ رضا سيبقى عندك بالتأكيد حتى أعود!؟

كنت أحبّ أن أسمع إلى أين وصلت أمور رضا على لسان أمّي. كان تشاؤمها سبباً لئلّا أستطيع الاعتماد على كلامها.

- إلى أين وصلت خطبته؟

جلست أمّي على الكرسي متعبة، نزعت (التشادور) عن رأسها وجفّفت عرق جبهتها:

- لقد أعطوهم جواباً بالموافقة الآن، لكنّي لا أصدق أن أمرهما سينتهي على ما يرام. إنّهما يختلفان في كلّ شيء.

كان عجيباً أنّ ينتاب أمّي إحساس رضا نفسه، لكنّي لم أكن أرى شيئاً يدلّ على هذا التوقّع. ربّما لم تدعني مشكلتي أفهم المسائل الخارجة عنّي فهماً صحيحاً.

- مهما كان وضع رضا فإنّه، على الأقلّ، يستطيع أن يجد لنفسه مخرجاً. الآن لم يحدث أنّ شخصاً آخر. لكن قولي...

قاطعتني أمّي:

- ما هذا الكلام الذي تقوله؟ لا أحد يمكنه أن يصل إلى مكانتك.

ابتسمت بسخرية:

- ما أسعدني بأنّ اسمي حمامة الحرم.

قالت بلهجة مؤيّدة:

- ألست كذلك؟

انحنت وداعبت شعري:

- إن لم تكن من قبل، فأنت الآن هكذا؟

قبّلت كفّ يدها.

- أتسمحان لي؟

أدرت رأسي نحو الباب، كانت الممرّضة. سألت ثانية:

- أتسمحان لي؟

كانت تحمل صينيّة الغداء. فجأة علا صوت انفجار، تبعه صوت صافرة الإنذار. تركت نفسي على السرير.

اختفت الممرّضة في إطار الباب، انحنت أمّي فوقي واحتضنتني. كان صوت مضادّ الطائرات يهزّ زجاج النافذة. سألت غير مصدّق وكنت لا أزال في حضن أمّي:

- ما الأمر؟

ضغطتني أمّي إليها بشدّة ولم تقل شيئاً. هزّ الغرفة صوت انفجار مرّة ثانية. كنت قد بهتت. كانت قد أصبحت ساحة معركة. كانت أمّي تهمس بالدعاء. كان يُسمَع صوت صراخ واستنجاد أشخاص عدّة من الغرف المجاورة. كانت مضادّات الطائرات تنطلق بلا توقّف. كان ثمّة دخان أسود قد غطّى قسماً من السماء في إطار النافذة. سألت ثانية:

- ماذا يحدث هنا؟

مرّة ثانية لم تقل أمّي شيئاً. مرّت لحظات عدّة من الصمت. لم أكن أظنّ أن الحرب قد امتدّت إلى المدن الشماليّة أيضاً. لم يعد هناك أي أثر للانفجارات وإطلاق مضادات الطائرات، كانت صافرات الإنذار قد انقطعت أيضاً. كانت أمّي ترتعش في حضني. قبّلت جبهتها المبلّلة، هي أيضاً قبّلت وجهي واتجهت إلى النافذة التي كانت تفتح على بستان كبير يمتدّ حتّى الشركة التعاونيّة.

- لِمَ لم تكتبي لي شيئاً؟

عادت نحوي ثانية:

- لقد كنتَ قلقاً بما فيه الكفاية.

أتت وجلست جانبي:

- لقد ظهروا في هذه الأنحاء منذ أسابيع عدّة، يريدون أن يضربوا مصنع السكّة الحديدية. لكن الحمد لله أنهم لم يستطيعوا هذه المرّة أيضاً.

- السلام عليكم!

كانت تلك الممرّضة، بلون ووجه شاحبين. أدخلت عربة الطعام إلى الغرفة، فشكرتها أمّي. أعطتها صينيّة الطعام وذهبت. لم تكن لديّ شهيّة للطعام، لكن كنت أعرف أن لا فائدة من ذلك مع أمّي. كانت قد سكبت كلّ طعام الإناء في حلقي، لذلك جعلت نفسي تحت تصرّفها.

الفصل الثالث

وسط الجمع الذي تجمهر أمام باب البيت رأيت السيدة أكبري. كانت الغصة قد خنقتني فلم أكن أستطيع أن أتنفس. تقدمت خطوات عدة، رفعت رأسي. كانت قد وقفت مقابلي، كان وجهها قد تغضّن. أرادت أن تقول شيئاً، لكنّها لم تستطع. مسحت دمعها بطرف (تشادورها) وقالت بحشرجة:

- أين تركت عبد الله؟

علا صوت البكاء من الجمع، احتضنتها نساء عدّة يرتدين (التشادورات) وأخذنها معهنّ. صرخ السيّد يحيى، والد رضا:

- اسمحوا لي! اسمحوا لي!

كان يحاول بجهد كبير أن يخترق الجمع المتحلّق. كانت الدموع قد غطّت وجهي ولم أكن أستطيع أن أمسحها. لم أكن قد بكيت أمام أي شخص من قبل. اخترقت حلقة الجمع. كانت السيّدة أكبري تجلس إلى جوار الباب على الأرض. كانت أمّي قد أمسكت كتفيها. أنهضتها وأخذتها إلى باحة الدار. كان السيد يحيى قد مدّد الخروف الذي كان يصطحبه على الأرض. أمسك السكين أمام حلقه وقال بصوت عال:

- صلوات على محمد وآل محمد!

صلى الجمع على النبي وآله وتناثر الدم من حلق الخروف.

قبّل السيّد يحيى وجهي:

- أهلاً وسهلاً بك في المنزل. إن شاء الله يعود المحاربون جميعاً إلى منازلهم منتصرين سا...

أراد أن يقول سالمين، لكنّه توقف وغيّر كلامه.

كانت غرفة الاستقبال ممتلئة بالمحتشدين. كانوا جميعاً يتحدّثون عن الحرب والهجومات والأسرى الذين كنّا قد أخذناهم من العراق. أحياناً كنت أقول شيئاً كي لا أبقى صامتاً. كانت أمّي وبعض نساء الجيران تقدّمن الشاي والفاكهة. لم أكن أستطيع الجلوس في مكان حتى يتحلّق الباقي حولي ويسألوني كيف فقدت يديّ. ثم يبدؤون بالمواساة كأن يقولوا إن فلاناً مثلاً فقد كلتا يديه وقدميه ويعيش كإنسان سالم بأطراف صناعيّة وهو راض جداً. ذهبت إلى باحة الدار، كان السيّد يحيى يقسّم لحم الخروف مع أحد الجيران. كنت أودّ أن ينتهي هذا التجمّع بأسرع وقت ممكن وأن يذهب الجميع إلى بيوتهم وحيواتهم لأستطيع أن أخلو وحدي مع هذا البيت. ذهبت نحو غرفة صغيرة كنّا قد وضعنا فيها فرشاً وبقايا أشياء لا قيمة لها. وضعت رأسي على ملاءة كانت تغطّي الفُرش. تنفّست بوجودي كلّه، كانت تفوح منه رائحة طفولتي. كم كنت أحنّ إلى ذلك الزمن. حين عدت لم يكن أحد قد تنبّه إلى غيابي. كان الجميع منشغلين بأنفسهم. كانت أمّي لا تزال في باحة الدار. كانت قد غسلت الأواني والآن تكنس الباحة. ذهبت وجلست إلى جوار العتبة. كان حذاء أكبري العسكريّ ذي السحّاب على الدرَج. بعد ليلة العمليّات تلك لم يكن هناك أي خبر عنه. لم يرَ أحد جثّته ولم يسمع أحد

صوته. أتت والدتي وجلست إلى جانبي. حدّقت إلى وجهي. كأنّ حنان الدنيا كلّه كان قد اجتمع في نظرتها. قبّلت وجنتيّ بلذّة وقالت:

- أهلاً بك يا ولدي!

أنا أيضاً قبّلت وجهها، وأردت أن أقبّل يدها لكن لم تدعني. قالت:

- ما الذي تفعله؟

قلت «كنت دائماً عالة عليك. قبل الحصول على الثانوية لم أعمل أبداً، وكنت أمضي وقتي كلّه في الرسم، ومن الآن أيضاً!»

- ما هذا الكلام الذي تقوله؟ لقد كنت دائماً مصدر فخر لي، والآن أكثر من قبل.

أردت أن أقول شيئاً لكنها تابعت:

- انهض لنمرّ على مرسمك!

كانت جدران المرسم وبابه وسخة وقاتمة. كان علينا أن نمسح جدرانه وأرضه. كانت على الرفّ صورة من أيّام مراهقتي حين كنت عاطلاً عن العمل.

كان الرسم وكرة القدم شغلي الشاغل، وهاجسي إلى أن أمسكت أمّي يدي في صيف تلك السنة وأخذتني عند المشهديّ متّقي. بقيت عنده يوماً أو يومين. لم أصغ إلى كلّ ما قاله في هذه المدّة. في النهاية رأى أن لا فائدة من الضغط عليّ، فاعتذر منّي وأتى إلى أمّي عند الغروب أيضاً وأخبرها أنّ ابنك لا يصلح للعمل. بعد ذلك لم تتدخّل أمّي في شؤوني، وتركتني لأرسم فحسب.

- أين ذهنك؟ ألم تشتَقْ إلى لوحاتك؟

كأنّ شيئاً أغلق حلقي. شعرت أني لا أستطيع أن أتنفّس. أيّ اضطراب وشوق كانا في لهجة أمّي؟! هززت رأسي:

- بلى!

سرت خلفها. كانت رهبة رؤية اللوحات قد ملأت وجودي كلّه. استيقظ ذاك الشعور نفسه الذي انتابني حين لقاء رضا. كنت أشعر أنّي سأفهم ضعفي وعجزي أكثر لدى رؤيتها. كنت أعدّها تتعلّق بماض بعيد وجميل كان قد تبدّل الآن إلى ذكريات ميتة ومؤلمة. مواجهة الذكريات الجميلة بالنسبة إلى شخص ليس لديه القدرة والإمكان لتكرارها يرافقه ألم وعذاب ومعاناة روحيّة عميقة أكثر من أن تكون تداعيات للذّة والسعادة. كان رأسي قد أصبح ساخناً. لم أكن أستطيع أن أقنع نفسي أن أخطو حتى خطوة واحدة إلى الأمام.

على العتبة كان كمّاي الخاليان يتحركان. أسندت رأسي إلى الجدار. عادت أمّي ونظرت إليّ بتعجّب:

- لِمَ جلست؟

قلت بهدوء وغصّة:

- دعيني يا أمّي!

أتت نحوي بقلق:

- حالك ليس جيّداً؟

لم أكن أعرف بِمَ أجيبها. كنت أخاف أن أقول ما يجول في ذهني وقلبي. قلت بهدوء فقط:

- ليكن في وقت آخر. لا أشعر بالرغبة في رؤيتها الآن.

جلست أمّي إلى جواري بقلق:

- ظننت أنّ نفسيّتك قد تتجدّد حين رؤيتها!

وتابعت:

- انهض، واذهب لترتاح في الغرفة. لقد تعبت كثيراً اليوم!

* * *

كان أكبري يبتعد عنّي. كنت أريد اللحاق به لكن لم أستطع. كنت ثقيلاً وضعيفاً. كان حذاؤه الذي أعطاني إيّاه إلى جانبي، وكان لا يزال يحتفظ بحرارة قدميه. لوّح أكبري لي بيده وطار بصحبة مجموعة الأخ ياسر نحو القمر. كانت السماء ذات عظمة ونورانيّة، ووجودي مملوءاً بالرغبة في الطيران. كنت أريد أن أنتعل الحذاء؛ لم يكن لديّ شعور مُرضٍ. تلمّست قدميّ بذعر. نظرت حولي بخوف. كان أكبري وأصدقاؤه في السماء، وكان الظلام الدامس يحيط بي وبالمكان كلّه. تلمّست قدميّ. كان مكانهما خالياً. جعلني إحساس الوحدة والعجز مضطرباً. صرخت من الخوف. فتحت عينيّ على سقف الغرفة. كانت قد غرقت في الظلام. كان القمر ينظر إليّ من النافذة. حرّكت يديّ وقدميّ. كانت قدماي في مكانهما ويداي غير موجودتين. كان جمال وعظمة طيران مجموعة الأخ ياسر ورهبة وخوف الوحدة والبقاء ما زالا يرافقانني. نهضت من مكاني. كانت أمّي نائمة في الغرفة المجاورة. خرجت من الغرفة، كانت تهبّ ريح خفيفة وتداعب الصفصاف المجنون الموجود في جانب باحة الدار. كان القمر قد نشر نوره في باحة الدار. كانت رائحة المنثور قد فاحت في الجو.

أخذت نفساً عميقاً. شعرت بالهدوء. ليتني أستطيع أن أرسم لوحة للصفصاف المجنون في ليلة مقمرة مع صنبور الماء الذي ثقبت قطراته الحجر تحته. جلست على عتبة، نظرت إلى السماء الممتلئة بالنجوم، ذلك الفضاء الغيبيّ وذلك النور الصافي الجميل كانا يشبهان اللوحات التي كنت أفكّر بها في الجبهة. شعرت أني ممتلئ بالشوق إلى الرسم بحيث إني لو استطعت أن أمسك الفرشاة لأرسمها لما رفعت رأسي عن قماشة الرسم سنين طويلة. كان وجودي كلّه يلتهب. نهضت من مكاني. كان صنبور الماء يقطر. أردت أن أفتحه بأصابع قدمي، لكن لم أستطع. وجدت نفسي عاجزاً أمام صنبور الماء الذي كان مغلقاً بإشارة فحسب. كانت الريح تحرّك كمّيّ الخاليين. وجهت ركلة قوية إلى الصنبور.

- إنّ الذهب ينهمر من أصابعك. اعرف قيمتها يا أستاذ!

لم يكن لديّ شيء بدل يديّ. من دونهما لم أكن أستطيع أن أمسح دموعي. لكن يجب أن أتغلّب على هذا الصنبور. أدنيت وجهي منه. أمسكت الصنبور بأسناني وأدرته. فتح الصنبور، ووضعت وجهي تحته. رُشّ الماء بقوّة على وجهي وعنقي، وتبلّلت مقدّمة قميصي. هدأت حرارة داخلي، أخذت نفساً عميقاً. كان عليّ أن أغلقه الآن وأريه قدرتي للمرّة الثانية. أدرت الصنبور بأسناني. حين وصل إلى الدورة الأخيرة، قفز برغيّ الصنبور فجأة وخرج الماء بقوّة ثانية. كرّرت الأمر نفسه مرّة ثانية، لكن في اللحظة الأخيرة قفز برغيّ الصنبور ثانية.

كان من الواضح أنّه قد تعطّل، ويجب التدقيق أكثر لإغلاقه. كنت أريد بعناد أن أسيطر عليه بأيّ شكل. حاولت مرّات عدّة أخرى، لم تكن هناك فائدة. كنت قد اضطربت، تجلّى لي ضعفي وعجزي. لم أكن أريد أن

أتقبّل أنّي غير قادر على إنجاز عمل صغير وحقير كهذا. بانزعاج، ضربت رأسي به بقوّة وصرخت رغماً عني:

- انغلقْ، عليك اللعنة! انغلقْ!

- هذا أنت يا حميد؟ ماذا حدث؟

جلست في حفرة صغيرة من الماء كانت تكبر في كلّ لحظة. بدأت بالبكاء. أتت أمّي إلى جانبي. انحنت نحوي وسألت:

- لِمَ جلست هنا؟ ماذا حدث؟

أريتها كميّ الخاليين، لكن لم أستطع أن أقول شيئاً.

قبّلت أمّي وجهي، ثمّ أغلقت صنبور الماء بدقّة وقالت:

- لقد تعطّل منذ مدّة، يجب أن أعطيهم نقوداً ليغيّروه غداً.

ثمّ أمسكت تحت إبطي ورفعتني:

- لنذهب إلى الداخل، غيّر ملابسك.

لم تكن لديّ أيّ قدرة على المقاومة.

- من الآن فصاعداً، نادني لو أردت القيام بأيّ عمل. حين تمضي عدّة أيّام، ستتعلّم شيئاً فشيئاً كيف تنجز أعمالك بنفسك.

الفصل الرابع

كان الصوت يأتي من باحة الدار، نهضت من مكاني بسرور. كنت قد اشتقت إليه جدّاً. على الرغم من الأخلاق المعوجّة التي كان يتخلّق بها، كان جزءاً من وجودي، لم أكن أستطيع أن أتجاوزه بسهولة وأتجاهله. أردت أن أذهب إليه مرّة أو مرّتين، لكن الزوّار كانوا لا يفسحون لي مجالاً للتحرّك من المنزل.لا أذكر أنّي قد عشت ألماً وعذاباً قطّ كهذين الأسبوعين، ولا سيّما حين كان يأتي الجيران والمعارف البعيدون والأقارب لرؤيتي، وكنت أرى نظراتهم المشفقة التي تدور حول كميّ الخاليين وكان كلّ جهدهم أن يواسوني بابتسامة مشفقة ولهجة مملوءة بالعطف. كنت قد شعرت بالاشمئزاز من هذا العجز والضعف كلّه الذي كان قد دفعهم إلى إبراز محبتهم بهذا الشكل المقزّز. في أوقات كهذه كنت أخرج من الغرفة، لكن بعد حين كانت أمّي تتبعني لتخبرني أنّ هؤلاء قد أتوا لرؤيتك، والآن أتيت إلى هنا وتمدّدت وحدك. كنت أعود إلى غرفة الاستقبال، ولأغيّر الحديث كنت أحاول إضحاكهم بكلام مضحك وبالطرائف التي كنت قد سمعتها. في البداية كانوا ينظرون إليّ بتعجّب، وبعد ذلك يشاركونني، على الرغم من أنّي سمعت فيما بعد أنّ بعضهم كان قد قال: كأنّ فلاناً صار سخيفاً. في الصباح كانت أمّي تعدّ كلّ شيء من أجلي قبل الذهاب إلى الإدارة، حين كانت تصل عند الظهر، أيضاً، كانت تقوم بأعمال المنزل بعد الغداء مباشرة. لذلك لم نكن نستطيع أن نتحدّث بضع كلمات حتى قرب الغروب؛ بالتأكيد لمّا لم

يكن أحد يأتي لرؤيتنا كنت أشعر، أحياناً، أنّ أمّي تتعمّد أن تتركني أخلو بنفسي أكثر. ربّما كانت تريد بهذا التصرّف أن أقرّر ما أريد فعله قبل كلّ شيء. اقتَرَحَت مرّة أو مرّتين أيضاً أن نذهب إلى بيت صديق أو أحد المعارف لتغيير الجوّ لكن لم أقبل، وهي أيضاً لم تلحّ كثيراً. في هذه الفترة سألت أمّي عن رضا مرّات عدّة، لكنّها كانت مشغولة بأموري وأمور المنزل حتّى إنّها كانت لا تعرف شيئاً عن الدنيا كلّها.

لم أكن قد وصلت إلى الباب حتى فُتِح:

- كيف أنت يا بطل؟

عانقني:

- هل أنت بخير؟

قبّل وجهي، فقلت بهدوء:

- أنت جاحد جدّاً!

جلس جانب المدفأة المطفأة، واتّكأ بظهره إلى مسند.

- هل بدأت ثانيةً؟ ألم يعلّموك شيئاً غير هذا الكلام.

على الرغم من أنّي كنت أشعر بالضيق لابتعاده لكن لا أعرف لِمَ كانت لهجتي تصبح حادّة وجارحة حين أراه، ربّما كنت أحسد ملينا التي كانت قد أخذته مني. نظرت إليه ولم أقل شيئاً، شعرت أنّي أخشى أن يجيبني بشيء، ويضطرب فجأة نظام المعرفة والفكرة التي كانت لديّ عنه ويتبدّل بجوابه. كان لحياتي مسير ثابت وواضح أمامي حتى فترة وجيزة مضت، حتّى إنّي كنت أستطيع أن أتنبأ إلى أين سيصل هذا الطريق. هذه النظرة وهذا التصوّر كانا

يشملان الأشخاص المحيطين بي، بحيث إنّ أيّ تغيّر أو تحوّل فيهم لم يكن قابلاً للتصوّر لديّ. حتى في الجبهة، حين كان الشباب يستشهدون أمام عينيّ لم أكن أشعر أن هذه الحادثة ستوجِد تغييراً أساسيّاً ومهمّاً في حياتهم وحياة الآخرين. لكنّ فَقْدَ يديّ جعلني أشكّ بشكل مطلق ودائم في كلّ ما هو موجود حولي، ذلك أنه من الممكن أن يتّخذ كلّ شيء شكلاً متفاوتاً بعد لحظة؛ شكلاً حتى إنّه قد يصبح متضادّاً مع ما كان عليه من قبل. هذا التحوّل من الممكن أن يلقي بحياتك في مسير لم تكن قد فكّرت فيه من قبل، ولم تكن قد رأيت في نفسك استعداداً للتعامل معه قطّ.

تابع رضا بلهجة مسترضية:

- صدّق أنّي كنت مشغولاً هذه الأيّام، حتى إنّي لم أجد وقتاً لأحكّ رأسي.

كان صوتي هادئاً:

- ما هذا الأمر الذي شغلك إلى هذه الدرجة؟

- أهلاً بك سيّد رضا!

نهض رضا من مكانه نصف نهضة:

- عفواً إن تأخّرت، كنت أقول السبب لحميد.

وضعت أمّي إناء الفاكهة أمام رضا؛ مع طبقين للتقديم؛ أحدهما أمامي، والآخر أمام رضا.

- لقد أخجلتنا!

- زرنا أكثر، فحميد لا أحد له سواك.

- صدّقيني، إنّ فكري كلّه عند حميد.

قالت أمّي:

- هذا من لطفك.

وخرجت من الغرفة.

أخذ رضا تفّاحة ووضعها في طبقه.

- كنت أقول إنّي أضع اللمسات الأخيرة على لوحاتي الجديدة الخاصّة بمعرض الرسم، فمن المقرّر أن يفتتح غداً.

سألت بتعجب:

- لوحاتك الجديدة! ما أسرع ما رسمتها!

ضحك:

- وضعت اللوحات التي كنّا قد قرّرنا معاً أن تكون حول الجبهة والحرب جانباً الآن. منذ مدّة قد اتّجهت نحو الأعمال التجريديّة وأعمال الحجم، بالتأكيد لأجل ملينا فحسب،لأنّ الواقعيّة لا تعجبها كثيراً. إنها تذكّرها بالواقعيّة الاشتراكيّة.علاقتها باللوحات التي تمثّل حال الجبهة وجوّها ليست جيّدة، إنّها تقيم تواصلاً أفضل مع الأعمال التجريديّة. كأنّها قد رأت في لوحاتي أيضاً عروقاً من الأعمال التجريديّة، لأنّها قالت لي ذلك بنفسها وقد كتبته في دفتر الاقتراحات الخاصّ بالمعرض الأوّل. معها حقّ؛ أحياناً يمكن لناقد جيّد وغيور أن يغيّر مسيرة حياة فنّان ويحييه. أظنّ أنّي في هذه المدّة القصيرة قد استطعت جيّداً أن أعمل وفق الأسلوب الجديد. سترى ذلك بنفسك.

ضحكت بتعجّب غير مصدّق:

- إذن، وفقاً لذلك، فقد قبّلت الماضي ووضعته جانباً.

قال بحياديّة:

- التحوّل نتيجة منطقيّة لحياة مستمرّة. لا يوجد أيّ سبب كي يفكّر أيّ شخص في المستقبل على النحو الذي كان يفكّر فيه قبل سنوات عدّة أو حتى كان يعيشه.

شعرت أنّي لو تابعت، يمكن أن ينزعج.

- بعد ذلك، ماذا تريد أن تفعل؟

حمل التفاحة ليقشّرها:

- إن شاء الله، أريد أن أنظّم حياتي بعد شهر أو شهرين.

سألت:

- كيف؟

قسم التفاحة نصفين:

- سأعقد قراني على ملينا وأرتاح من الأصدقاء البُله أمثالك.

وضع نصف التفاحة في طبقي وقطعها قطعاً عدّة، وضع قطعة في فمي، فلم أشعر بأيّ شفقة في فعله هذا. ابتلعت التفاح:

- حسناً! بعد ذلك؟

وضع قطعة أخرى في فمي:

- لا يوجد بعد! بعدها راحة مطلقة!

سألت بفم مملوء:

- الآن مع هذه الخطّة التي وضعتها لِمَ تقيم معرضاً؟

قضم نصف تفاحته:

- آه! هذه قد أصابها الدود.

وألقى بها في الطبق.

- المستجدّات بعد التغيير وتحولات الاتحاد السوفييتي والأحداث والأعمال التي قام بها غورباتشوف فتحت الحدود في تلك الجهة، وسمحوا للروس بأن يأتوا إلى هذه الناحية أياماً عدّة، أو للإيرانيين بأن يذهبوا إلى هناك. قبل أيّام عدّة أتى أشخاص عدّة من أسرة ملينا إلى إيران. لا تعرف كيف كانت ردّة فعلهم بعد أن رأوا بعضهم بعد سنوات طويلة؛ كيف كانوا يبكون. كأنّهم من عائلات موسكو الكبرى والعريقة.

قفز على لساني:

- هل كان أولاد أعمامها وأولاد أخوالها أيضاً؟

نظر رضا إليّ نظرة حادّة، كأنّ شيئاً كان قد علق في حلقه. ازدرد لعابه مرّات عدّة، ثمّ قال بعد بضع لحظات:

- أنت أيضاً ركّز على أصل القضيّة!

أصبحت لهجته مشوبة بالمرارة فجأة، فسألته:

- هل حدث شيء؟

نهض من مكانه:

- يجب أن أذهب لأنهي أعمال المعرض.

سألته كي أغيّر فكرته:

- لم تقل لِمَ أقمت المعرض؟

لم يقل شيئاً. اتّجه نحو الباب، فنهضت نصف نهضة وقلت:

- لقدُ سُرِرْتُ يا عمّ، لِمَ انزعجت؟

وقف رضا جانب الباب، ثمّ عاد وقال:

- أردت أن تكون في افتتاح المعرض، يمكنك أن تحضر لوحاتك أيضاً إن أردت.

نهضت:

- اللوحات تعذّبني.

قال بملل:

- لا أحتمل رؤية هذه التصرّفات الجنونيّة. ماذا ستفعل، هل ستأتي أو لا؟

لم أشأ أن أخسره بهذه السهولة:

- نعم سآتي. في أيّ ساعة يجب أن أكون هناك؟
- في الخامسة بعد الظهر.

ذهبت نحوه:

- هل انزعجت من كلامي؟

نظر إليّ بحزن:

- هل أنت طفل؟ لم تقل شيئاً.

فتح باب الغرفة.

حين خرج من الغرفة علا صوت أمّي من باحة الدار:

- إلى أين سيّد رضا؟ لقد أتيت توّاً.

لم أسمع ماذا قال رضا. علا صوت أمّي ثانية:

- بلّغ سلامي.

ما إن خرجت من الغرفة، حتى كان رضا قد غادر باحة الدار. نظرت إليّ أمّي وسألتني بتعجّب:

- هل قلت له شيئاً؟ كان منزعجاً جداً.

رفعت كتفيّ. ما إن هممت بقول شيء حتى ملأ صوت صافرة القطار الممتدّة الجو. كلّما سار قائد القطار على سكّة أخرى عن طريق الخطأ، كان صوت الصافرة الممتدّة دقيقةً تجعل الجميع يضطربون.

الفصل الخامس

قلت بملل: «لا أحتمل ذلك الآن».

رمقتني أمّي بانزعاج:

- ألا تخجل؟! كان زوجها معك في الخندق نفسه. الآن يصعب عليك أن تزور أسرته لتواسيها؟

نهضت من مكاني مهمهماً. منذ بضع أيّام كانت السيّدة أكبري قد أتت لرؤيتي، لكن كنت قد ذهبت إلى الطبيب لأغيّر ضمادات يديّ. كانت أمّي قد وعدت أن نزورها معاً في أقرب فرصة، لكنّي كنت أؤخّر هذا الأمر بأعذار مختلفة. في النهاية، وضعت (تشادورها) على رأسها الليلة وقالت: «يجب أن نذهب إليهم الآن». ثمّ ذهبت إلى باحة الدار أيضاً وانتظرتني. لم يكن لديّ الاستعداد والصبر على الذهاب إلى أيّ مكان ورؤية أحد أصلاً. كانت رائحة المنثور قد ملأت فضاء الدار، فأخذت نفساً عميقاً. رأيت أمام عينيّ سعة السماء وصفاءها وزرقتها التي استمرّت من دون نهاية. تذكّرت أيام كان حديثي كلّه وبحثي، أنا ورضا، يدور حول الرسم. كنّا قد جلسنا في باحة الدار ذات ليلة، وكنّا نتحدّث عن لون الروائح ؛ كيف يمكن نقل الروائح المختلفة باللون. بعد كلام كثير وصلنا إلى نتيجة مفادها أنّ أفضل لون لإظهار الإحساس الذي ينتاب الإنسان حين استنشاقه الرائحة الطيّبة هو اللون الأزرق السماويّ، منذ ذلك الحين كانت رائحة المنثور لدي تأتي في شكل سماء زرقاء وصافية.

- عزيزي حميد تحرّك، لقد تأخّر الوقت!

انتعلت حذائي.

- ليس الآن وقت سهر!

اتّجهت أمّي نحو باب الدار:

- الوقت ليس متأخراً! لكن لو تلكّأت دقائق عدّة فسيصبح متأخراً.

فتحت باب الدار. سرنا، سمعت صوتها:

- السلام عليكم يا بنيّ! طابت ليلتك!

كان أحد ما قد مرّ من جانب الباب. علا صوتها ثانية:

- لقد تأخّر الوقت!

أغلقت أمّي الباب. كنت أنجذب إلى الماضي في هذه المدّة دون إرادة منّي. في السابق كنت أتمنّى دائماً أن أرى نفسي في المستقبل وعلى عكس الآن لم أكن على أيّ صلة بالماضي. لكنّ الماضي الآن كعلقة كانت قد ألصقت نفسها بي، ولا تريد أن تنفصل عنّي. لم أكن أرى أيّ مستقبل واضح وأيّ باعث على الأمل، لذا كنت ألجأ إلى الماضي لأيّ سبب، إذ كانت له صورة واضحة وشفّافة في ذهني، على الرغم من أنّ إحياء كلّ ذكرى كان سبب عذاب وأذى كبيرين لديّ.

وصلنا إلى باب بيت أكبري، رنّت أمّي الجرس. مرّت لحظات عدّة. لم يكن هناك أيّ خبر. قلت:

- ألم أقل إن الوقت متأخر!

حرّكت أمّي (تشادورها):

- مصباح غرفتهم مضيء.

علا صوت أقدام، فتنحنحت. فُتِح باب الدار.

- تفضّلا!

تقدّمت أمّي خطوة:

- السلام عليكم سيدة أكرم!

قالت السيّدة أكبري بسرور:

- وعليكم السلام. ما أحسن ذلك! يا للعجب! أهلاً وسهلاً! يا للعجب!

تقدّمت:

- السلام عليكم سيّدة أكبري!

رتّبت تشادورها:

- وعليكم السّلام حميد أفندي. أهلاً وسهلاً بكما! تفضّلا، تفضّلا إلى الداخل!

تنحّت جانباً من أمام الباب. دخلت أمّي، ثم أنا. كان لبيوت المؤسّسة باحة كبيرة، حيث كان بعض موظفي السكّة الحديديّة يشكّلون فيها حدائق صغيرة، وكانوا يزرعون أنواع الورد طيّب الرائحة، وأعشاب الأكل. كان السيّد أكبري من أولئك الذين كانوا يهتمّون جدّاً بالورد والنبات. حين كان يحين الغروب كان يعتني بورد الحديقة واحدة واحدة، ويبدأ بريّها وتدليلها. أحياناً كان يجلس جوارها، حتى إنّك تظنّ أنه يناجيها همساً.

لم يكن في الحديقة أي أثر للورد والنبات، فصدمت بشدّة. كان وسط الحديقة قِدْر كبير كانوا قد وضعوه على موقد. فيما مضى كانت السيّدة أكبري تصنع ربّ البندورة للمساعدة في مصروف البيت وكانت تبيعه للأقارب والجيران، لكنّ مكان القِدْر كان في زاوية الدار جانب الباب. فَتَحَت باب الغرفة:

- تفضّلا إلى الداخل، شرّفتما. عزيزتي مينا، تعالي! جاءت السيّدة محمّدي وولدها.

كانت بيوت المؤسّسة يشبه بعضها بعضاً، ففي البداية كنت تدخل إلى ممرّ ضيّق؛ كان المطبخ على جهته اليسرى، وعلى يمينه غرفتان. كانت الغرفة الأولى، التي كانوا يسمونها غرفة الاستقبال، أكبر. وكانوا في الغرفة الثانية يضعون الفُرش ومستلزمات البيت كلّها. جلست السيّدة أكبري مقابلنا وقالت:

- عجباً حميد أفندي أنّك تذكّرتنا!

ما إن هممت بقول شيء حتى غطّت وجهها بـ (التشادور)، وبعد لحظات عدّة مسحت عينيها.

قالت أمّي بهدوء:

- كنّا نريد أن نأتي من قبل، لكنّ حميداً كان متعباً قليلاً. اليوم حاله قد تحسّن، فقلت نأتي لنسلّم عليكم.

كانت عينا السيّدة أكبري المملوءتان بالدموع تحدّقان إلى السجّادة، وكي لا أبقى صامتاً سألتها:

- ألم يأت خبر من السيّد عبد الله؟

أخذت السيدة أكبري نفساً عميقاً:

- قلوبنا معه، لكن لا أدري قلبه مع من، فلا يذكرنا.

قلت: «كان دائماً يتحدّث عنكم، ليلة الهجوم كان دائماً يذكركم».

ضحكت بغصّة:

- ماذا كان يقول؟

وخز الدمع عينيّ. آلمني أنفي:

- كان يقول إنّه قد اشتاق إليكم جدّاً.

قالت بهدوء:

- لأجل هذا ذهب ولم ينظر خلفه؟

رفعت رأسها، ألقت نظرة عليّ. نظرتها الممتلئة بالحسرة أثقلت وجهي الذي ما يزال حيّاً.

أدرت نظري حولي. كانت رسوم عدّة بالقلم لصورة الإمام وأكبري قد ثبّتت بمساميّر كبس على الجدار. اتّجهت نحوها، كانت جميلة على الرغم من أنّها كانت تبدو مضطربة وبدائيّة.

- إنّها عمل مينا!

سألت بتعجب:

- مينا؟!

قالت أمّي: «ابنة السيّدة أكرم!»

قالت السيّدة أكبري: «إنّها تلميذتك! في مجمّع السكّة الحديديّة».

في السنة الماضية، كنت قد أقمت دورة رسم وتصميم لأبناء منطقة السكّة الحديديّة. أُنتجت أعمال جيّدة من تلك الدروس، لكن لم يبق اسم أحد في ذاكرتي ولم أكن أقصد أن أعرف لمن هذه الأعمال. اخترت الأفضل فحسب وأعطيتها للشباب في القطعة ليستخدموها منها في مكان مناسب إن أرادوا.

قلت ضاحكاً: «أصبحت متفائلاً بنفسي».

- السلام عليكم!

أدرت رأسي. دخلت فتاة متوسّطة القامة ترتدي (تشادوراً)، وبيدها صينيّة الشاي. نهضت أمّي نصف نهضة:

- وعليكم السلام يا بنتي! أتعبت نفسك.

أمسكت مينا (التشادور) بأسنانها، وضعت الصينيّة على الأرض وجلست جانب الباب. جلست جانب أمّي. رددت سلامها وسألت:

- هل اشتركتِ في دورة أخرى أيضاً غير دورة الصيف؟

قالت:

- لم تُقَم دورة أخرى، غالباً ما كنت أعمل وحدي.

نظرت إلى الرسوم على الجدار: بالتأكيد تابعي.

طأطأت مينا رأسها:

- شكراً جزيلاً، بالتأكيد!

قالت أمّي مباشرة: إذا احتجتِ مساعدة، فإنّ حميداً سيساعدك.

نظرت إلى أمّي بتعجب. في اللحظة نفسها علا صوت جرس الساعة. نهضت السيدة أكبري بسرعة، اعتذرت بصوت خافت وخرجت من الغرفة.

- ماذا حدث ؟ ربما أرادوا الذهاب إلى مكان ما وقد أزعجناهم.

رفعت أمّي كتفيها ولم تقل شيئاً. وصل إلى مسامعي صوت خشخشة خفيفة للمذياع من الغرفة المجاورة. بعد لحظات عدّة دخلت مينا الغرفة وقالت بارتباك: أعتذر!

وجلست جانب الباب، فسألتها أمّي بتعجّب:

- هل حدث شيء؟

أجابت مينا بانزعاج:

- لا، لا شيء. إنّ أمّي تستمع إلى إذاعة العراق في الساعة السادسة كلّ ليلة، فربّما تسمع صوت أبي. مهما قلت لها الليلة إنه تصرّف غير لائق، لكن مع ذلك أيضاً... قاطعتها أمّي:

- لا يا بنتي، دعيها ترتاح.

مضت لحظات عدّة من الصمت. ازداد صوت خشخشة المذياع، فسألت أمّي:

- ما أخبار عبّاس؟

قالت مينا: إنه في كردستان، حين أرسلنا له تلغرافاً نخبره فيه بأنّ أباه مفقود أعطوه إجازة مدّة أسبوع ليزور المنزل.

سألت:

- كم بقي حتى تنتهي خدمته؟

أجابت دون أن تنظر إليّ:

- سنة أخرى!

كان صوت خشخشة المذياع لا يزال عالياً في الغرفة المجاورة، صمتنا جميعاً مرّة ثانية.

نظرت أمّي إليّ ونهضت من مكانها:

- حسناً عزيزتي مينا. سلّمي على أمك!

نهضت مينا:

- تفضلا اجلسا!

رتّبت أمّي (تشادورها):

- سنزوركم مرة أخرى إن شاء الله.

- قالت مينا بانزعاج:

- يجب أن تعذرونا لأنّ أمّي...

ذهبت أمّي نحوها وقبّلت وجهها:

- ما هذا الكلام يا بنتي. نحن جميعاً في انتظار والدك، سيعود سالماً في أسرع وقت إن شاء الله.

خرجنا من الغرفة. كان صوت المذياع مسموعاً أكثر في الممرّ:

- بسم الله الرحمن الرحيم. أنا بهروز إسماعيلي من بلدة...

كنت أشعر بالعذاب الروحيّ والنفسيّ الذي تعانيه السيدة أكبري في هذه اللحظات بوجودي كلّه. البقاء في انتظار صوت مألوف بعد كلّ صوت غريب، ومرّة أخرى طريق مغلق وتكرار هذه الدائرة المغلقة إلى غير نهاية. كنت أتمنّى لو تكون يداي موجودتين وأتمكّن من رسم صورة لوجهها؛

وجهها المتألّم الذي توضّع الانتظار في كلّ خليّة من خلاياه. الرسم بيد مقطوعة لا تستطيع أن تفتح باباً.

ودّعنا مينا ودخلنا الزقاق، قالت أمّي:

- قالت السيدة بابائي إنّها أحياناً تستمع إلى إذاعة العراق، فربّما تخرج بخبر عن زوجها. حتى إنّها تعرّضت مرّة لنوبة قلبيّة بسبب الانفعال الزائد، لكن لم أكن أعرف أنّ برنامجها كلّ ليلة هو هذا.

- قلت: «لِمَ لا يمنعونها؟»

قالت أمّي: «أيستطيعون ذلك؟ لقد أصبح ذلك، بالنسبة إليها، كالتنفّس».

قالت أمّي مرّة ثانية:

- ما شاء الله كم كبرت مينا وأصبحت سيّدة!

لم أقل شيئاً، أمّي لم تتابع أيضاً. كان الجو الحزينّ والمملوء بالهمّ لمنزل أكبري قد هيمن عليّ. نظرة زوجته الحزينة المترقّبة لأفق عودته المظلم والغامض، وتعلّقها، المتأمّل بيأس، بجوّ كهذا قد وضع وجودي كلّه تحت الضوء. توقّع عودة السيّد أكبري كان غير ممكن مثله كمثل نموّ يدين أخرتين على كتفيّ. شهادة مجموعة ياسر الجماعيّة وسط مستنقعات بلدة نورد وحقول قصبها، لم تكن قد تركت أيّ مجال للشكّ في شهادته. في تلك الليلة لم يكن العراق قد أرسل حتّى أسيراً واحداً خلف الخطّ أيضاً. والآن على الرغم من هذه الأقاويل، محاربة يأس مؤلم للروح كهذا بتفاؤل، كان أكثر أشكال الحبّ والعشق حزناً وعظمة.

الحذاء العسكريّ لأكبري كان لا يزال على الدرج جوار الباب. جلست جانبه مضطرباً نافد الصبر رغماً عني. كأنّه كان يجب أن أقول شيئاً مقابل ما

كنت قد رأيته، أن أصرخ أو أرسم لوحة. كان شيء ما في داخلي في حال الغليان والفوران. إحساس مألوف، وفي الوقت نفسه غريب. إحساس كان ينتابني كلّ فترة ويسحبني داخله كصَدَفة، لأشهد بسرور مشوب بالحزن تشكّل لؤلؤة في داخلي. لتجذب ما تراه إليها ضرورياً للرشد والنموّ. وكنت مشتاقاً وقلقاً للّحظة التي ستطلّ فيها من داخلي. كان كمّاي الخاليان ماءً على نار. تلاشيت، أحسست أنّ كلّ ما كان في حال تكوّن فيّ قد ظهر كغصّة في حلقي. كيف كنت أستطيع أن أكتب ما ينمو في داخلي على شمع أبيض! أصدرت أنيناً من أعماق قلبي، اتّكأت على الجدار برأسي. نظرت إلى باب المرسم المغلق، الذي كان قد غرق في الظلام. شعرت بالبرد. نهضت من مكاني متعباً منكسراً وذهبت إلى الداخل.

الفصل السادس

كان قد بقي نصف ساعة على افتتاح المعرض حين خرجت من البيت. كان مكان المعرض في صالة مجمّع متنزّه المدينة الثقافيّ. من الجيّد أنّ مكانه كان هناك حيث لم يكن لي فيه أيّ ذكرى. فقد عرضنا أنا ورضا أعمالنا في صالة ثانويّة السكّة الحديديّة الكبرى. الأمر السيّىء في ذلك، بالتأكيد، هو أنّه في هذا الوقت من النهار لم يكن في المتنزّه مكان لسقوط إبرة، وإن كنت تريد الوصول إلى صالة المجمّع فإنّ ألف عين ستحدّق فيك.

درت حول ساحة المدينة، كان قد بقي شارع واحد للوصول إلى المتنزّه. كانت السماء نصف غائمة، وكانت الشمس قد اختفت خلف الغيوم المنتفخة والبيضاء. حثثت خطاي، فوصلت إلى المتنزّه. نظرت حولي بانزعاج. كانت الصالة تقع في نهاية المتنزّه. لم يكن هناك أيّ طريق للوصول إليها غير المرور من جوار بركة المتنزّه الكبيرة. كنت أريد أن أطوي الطريق بخطوات أسرع، لكنّ تصرّفي هذا أدّى إلى لفت أنظار الآخرين. تظاهرت بعدم الاهتمام. درت حول البركة بخطوات هادئة ومعدودة، واتّجهت نحو الصالة. إلى أن وصلت، شعرت بثقل نظرات بعض الأشخاص. حين أدرت رأسي حولي رأيت أن الجميع منشغلون بأنفسهم.

حين وصلت جانب المجمّع تنفست الصعداء. كان قد بقي رضا، يجب أن أريه نفسي، وبعد ذلك كان عليّ أن أستأذنه وأعود.

- السلام عليكم يا أستاذ!

أدرت رأسي، كان شابّاً أصغر مني بنحو سنة أو سنتين.

- وعليكم السلام!

سأل:

- هل شاركت أنت أيضاً في المعرض يا أستاذ؟

تجمّدت. لم أكن أعرف ماذا أقول. حاولت أن أحتفظ بهدوئي.

قلت: «لا... أنا...».

حدّقت نظرة الشابّ المتعجّبة والمنكرة إلى كمّيّ الخاليين:

- هل حدث لك شيء يا أستاذ!

ليت أحداً ينجدني. اصطدمت يد بكتفي:

- أين أنت! لقد انتظرتك منذ وقت طويل.

- هل حدث شيء؟

مسح بيده على جبيني:

- كأنّك تعاني من الحرارة؟

هززت رأسي.

- ليس بالأمر المهمّ.

سأل الشاب رضا بتعجّب:

- ماذا حدث للأستاذ؟

قال رضا: «لقد أصيب في الجبهة».

طأطأت رأسي. لم أكن أريد أن أرى ردّة فعله. سمعت صوته:

- للأسف. كان يملك يدين مبدعتين!

قال رضا: «المهمّ قلبه الذي لا يزال مبدعاً»

- حسناً. نعم! صحيح! عن إذنك أستاذ!

بعد لحظة من وداعه أيضاً لم أرفع رأسي. سألني رضا:

- هل كنت تعرفه؟

قلت: «لا!».

ضحك رضا:

- هذه أيضاً من مساوئ الشهرة، فالناس كلّهم يعرفونك، لكنّك لا تعرف أحداً.

- أتيت لأراك وأعود.

قال بعتب:

- هل بدأت ثانيةً. لقد أتيت هذا الطريق كلّه، ألا تريد أن ترى لوحاتي الجديدة؟

وقبّل وجهي:

- بغضّ النظر عن أيّ شيء، أريد أن أطهّر لوحاتي بحضورك.

جذبني نحو باب المعرض الزجاجيّ، ثمّ دخلنا الصالة. كان مكاناً جيّداً وكبيراً، وإضاءته المناسبة جدّاً قد أعطت اللوحات مظهراً خاصّاً. كان قد لقي استقبالاً جيّداً أيضاً. عاد أشخاص عدّة ونظروا إلينا. شعرت بالعيون مكان يديّ الخاليتين. تصبّب عرق بارد على جسدي، لم أكن أريد أن يتكرّر ما حدث مع ذلك الشابّ مرّة ثانية. قال رضا:

- كأنّ حالك ليست جيّدة، حقّاً.

هززت رأسي:

- لاشيء مهم.

وتابعت:

- الآن وقد أتيت، من الأفضل أن ألقي نظرة على أعمالك.

ابتسم رضا واتّجه إلى أشخاص عدّة كانوا ينادونه. مع كلّ الدقّة واللطف التي كانت تبدو في اللوحات، كان واضحاً على نحو كامل أيضاً أنّ لغة أسلوبها الجديد لم تجد مسيرها الطبيعيّ والمنطقيّ بعد. خطوط متقطّعة، تصاوير مبهمة وعجماء، وألوان متداخلة. على الرغم من أنّها تبدو جميلة للوهلة الأولى، لكن بقليل من الدقّة يمكن الإدراك أنّها جميعاً نابعة من رؤية غير منسجمة وغير متناسقة فنّيّاً. ربّما كان سبب حساسيّتي هو أنّي كنت أعرف أن ثمّة دوافع ورغبات تختبئ خلف تغيير الأسلوب.

كانّ أشخاص عدّة يشرحون لبعضهم إحدى اللوحات بحماس. بحثت عن رضا، كان يقف جانب إحدى اللوحات مع بوريس أخي ملينا الأصغر وشخص آخر. كان يتكلّم باضطراب وحماس. وقفت خلفه دون أن ينتبه إليّ:

- ذلك الشيء الذي يشخّص اللوحة هو رغبة الرسام، هو أيضاً نتيجة تلقّيه العاطفيّ والحسيّ لموضوع الرسم. يجب أن يمتزج الرسّام مع عناصر الرسم إلى أن يشعر أنّ الشيء الذي يرسمه هو في الحقيقة قسم من وجوده. قال أحد الرسامّين المعروفين إنّي أمزج الألوان بدمي حين أرسم.

سأل صديق بوريس:

- كيف يمكن فهم إحدى لوحات الرسم؟

أخذ رضا نَفَساً جديداً وقال بابتسامة:

- حتى ندرك الفضاء الذهنيّ للوحة، يجب أن ندخل أنفسنا ذلك الفضاء دون أن نحتفظ بشيء من ذهنيتنا ونظراتنا. كثيرون ينظرون الآن إلى هذه اللوحات بذهنيّة ومعايير أساليب كالواقعيّة والسرياليّة أو حتى ما بعد الحداثة، وبالنتيجة يقعون ضحايا التشويش، ولأنّ المعرفة التي يمتلكونها عن ماضيّ، يظنّون أنّ هذه اللوحات هي استمرار لذلك الأسلوب الذي كنت أعمل به في الماضي. لذلك لا يستطيعون إيجاد ارتباط مع هذه اللوحات. في حين أنه من الواضح تماماً أن هذا الإشكال يعود إلى الذهنيّة التي قرّرها الأصدقاء مسبقاً، ولا علاقة لها باللوحات أو بالرسام.

نظر بوريس إلى صديقه وابتسم، ثمّ شكر رضا واتّجها إلى باقي اللوحات. نظر رضا إليهما برضى، كأنّ وجهه كان مملوءاً باللذّة والفرح.

- لقد رسمت لوحات جيّدة! لقد تمكّنت جيداً من هذا الأسلوب!

- أنت هنا منذ وقت طويل؟

- ليس كثيراً!

مسح على رأسي:

- ألم يصبح حالك أفضل؟

- بلى. أنا أفضل لكنّ الجوّ خانق جداً هنا!

نظر إليّ بحيث شعرت في هذه اللحظة أنّي أفضل وأعزّ أصدقائه في الدنيا:

- لو كنت أعلم أنّ حالك ليست جيّدة، لما أصررت أصلاً على مجيئك.

- سلام رضا!

التفت، وأنا أيضاً التفتّ. لقد كانت ملينا. رفع رضا يده عن كتفي بسرعة واتّجه إليها. كان بصحبتها رجلان وامرأة كانت تضع على رأسها غطاء رأس صغير بشكل بدائيّ. كانت قاماتهم الطويلة وبشراتهم البيضاء وعيونهم الزرقاء قد جعلت أعين الزوّار تنتزع عن اللوحات وتحدّق فيهم. تهلّل وجه رضا، كانت عيناه تلتمع من الفرح. بعد لحظات عدّة قدّمني لهم.

- صديقي حميد!

سلّمت ملينا وقالت: «رضا حدثني عنك كثيراً».

وتابعت:

- آسفة لما حدث لك.

بدأت بالتحدث إلى المرأة والرجلين المرافقين لها باللغة الروسية. في لحظة دارت أعينهم حول كميّ الخاليين، قال أحد الرجلين شيئاً، فهزّت ملينا رأسها بتأسّف وقالت لرضا:

- أحد معارف ابن عمي إيفان كان قد فقد كلتا يديه في حرب أفغانستان، للأسف لقد انتحر قبل أشهر عدّة على أثر الاكتئاب واليأس الشديدين.

شعرت أنّي يمكن أن أدرك إحساسه، بالتأكيد كان هو الآخر رسّاماً مثلي وكان يعشق يديه. ربّما لم يستطع أيضاً مقاومة الهجوم المتوحش لنظرات الآخرين المشفقة والمقززة.

عضّ رضا على شفته وقال بحدّة:

- لكن حربنا تختلف عن حرب أفغانستان، أنت تعرفين جيّداً أنهم شنوا الهجوم على أفغانستان للوصول إلى أهدافهم الإمبرياليّة، في حين أن حميداً قد ذهب إلى الحرب لأجل الله ولأجل الدفاع عن بلاده. لذا لن يكون أبداً فريسة اليأس والإحباط.

شعرت بالدوار والضياع، لم أعد أحتمل ذلك المكان. قلت لرضا بصوت خافت:

- سأذهب إن سمحت لي، حالي ليست جيّدة.

قال رضا بانزعاج:

- في الحقيقة أعتذر. لم أكن أعرف أنّه من الممكن...

قاطعته:

- أنا ذاهب. ودّعهم بالنيابة عني أيضاً.

التفتت ملينا إليّ ثانية وقالت:

- في الواقع أنا آسفة لأنّك لن تستطيع الرسم ثانية.

التفت رضا إليها وقال شيئاً ما بانزعاج، ثمّ أخذ بيدها نحو اللوحات، وقال بصوت عال:

- المعرض يبدأ من هنا.

كانت الفرصة سانحة الآن ليلقمهم كلّ ما يعرفه عن الرسم. لكن ما إن بدأ حتى وقف أحد الرجلين؛ الذي كان أطول قامةً بينه وبين ملينا، وبالإشارة إلى أوّل لوحة بدأ الحديث مع ملينا. أراد رضا أن يقول شيئاً لكنّه رأى نظرة ملينا متّجهة إلى الرجل، فصمت وسار خلفهما مستسلماً.

خرجت من المعرض، كان المتنزّه قد خلا قليلاً. جلست على أوّل مقعد جانب بركة المتنزّه الكبيرة. عرّضت وجهي للريح الباردة التي كانت تأتي من الجهة المقابلة. كانت ملينا، بحديثها عن انتحار الرجل الذي كان قد أصيب في حرب أفغانستان، قد قدّمت لي الحلّ الذي يبدو لها مناسباً. حتى الآن لم أستطع أن أفكّر بالانتحار بوصفه طريقاً للحلّ. كنت أشعر، على الرغم من أنّ روحي قد أصبحت قابلة للكسر أمام كلّ كلمة أو نظرة أو تعامل؛ لكنّ شيئاً خفيّاً في أعماق قلبي لا يدعني أصل إلى اليأس المطلق الذي كان قد وصل إليه ذلك الجنديّ. كأنّ شعلة في عمق وجودي لا تزال تلتهب، وفي أوج اليأس والإحباط تحول دون هيمنة الجمود والظلام على داخلي.

خرجت من المتنزّه.

- خسارة أن تلك اليدين المبدعتين لم تكونا.

- انتبه لصمّام الألغام، لقد أصبح حسّاساً!

أقطع السلك بالقطّاعة الخاصة بالأسلاك. يقول روحي:

يداه تعملان بلطف ودقّة كيدي جرّاح.

أدير رأسي:

- كيدي رسّام!

أُخرج مادّة اللغم المشتعلة وأضعها جانباً، أنظر إلى يديّ، إنّهما واثقتان ولطيفتان.

تحرّك الريح كميّ الخاليين.

وصلت إلى محطّة السكّة الحديديّة. كانت مكتظّة. كانت صافرة القطار تُسمع من مسافة بعيدة، صعدت الدرجات الحديديّة لجسر المشاة بهدوء. كان الحشد يتماوج حول المحطّة، كان مصباح القطار الآتي من الجهة المقابلة يبدو أكثر إضاءة في الجو الذي يزداد ظلاماً كلّ لحظة.

- أحد معارف ابن عمّي إيفان الذي فقد يديه في حرب أفغانستان، قبل أشهر عدة...

وضعت رأسي على عمود الجسر الحديديّ، كان القطار قد اقترب أكثر، كانت كلمة انتحر تدور في دماغي. ليتني كنت قد سألت ماذا كان عمله؟ هل كانت يداه حياته كلّها وكان يرى مستقبله فيهما؟ هل كان شخصاً يحب يديه مثلي؟ كانت واجهة القطار تتقدّم.

- أحد معارف ابن عمّي إيفان الذي فقد يديه في حرب أفغانستان، قبل أشهر عدة...

كنت أتدلّى إلى الأسفل. في اللحظة الأخيرة أمسك شخص كتفيّ بقوة. تراجعت عن عمود جسر المشاة الحديديّ، مرّ القطار ووقف مقابل المحطّة.

- حميد ذهب إلى الجبهة لأجل الله، لذا لن يصبح في أيّ وقت يائساً وقانطاً.

جلست مكاني. كنت مشتّتاً. مرّ شخص من جانبي.

* * *

وضعت أمّي (تشادورها) على رأسها:

- عزيزي حميد! أنا ذاهبة.

قلت بهدوء: «مع السلامة!»

سارت أمّي خطوات نحو باب الدار، ثمّ عادت قبل أن تصل إلى الباب. كأنّها كانت متردّدة في قول شيء. سألتها:

- هل نسيت شيئاً؟

توقّفت:

- لا. انتبه لنفسك!

هزرت رأسي. خرجت أمّي من الباب. نهضت عن المصطبة. هل كان أحد قد رآني على جسر المشاة وقال لأمّي حتّى قالت هذا الكلام؟ وبهذه اللهجة أيضاً؟

ألصقت وجهي بـ (تشادور) صلاتها الذي كان على الحبل ولم يكن قد جفّ بعد، فهدأت. كان المرسم في الجهة الأخرى من باحة الدار، وقفت أمام بابه الخشبيّ المغلق. كان داخلي مملوءاً بالرغبات المختلفة والمتناقضة، أحببت أن ألقي نظرة على لوحاتي، ومن جهة أخرى لم أرد أن أعود إلى الماضي.

علا صوت جرس الباب، كانت أمّي قد تركت باب الدار نصف مفتوح.

- «تفضّل!».

لم يأت جواب، علا صوت الجرس ثانية:

فتحت الباب بمقدمة قدمي. كانت مينا خلف الباب. سلَّمَت، فجاملتُها. كان حالها يبدو مضطرباً جدّاً ومشوّشاً.

- هل الوالدة هنا؟

قلت: «لا! لقد ذهبت إلى الإدارة».

رتّبت (تشادورها) وقالت بقلق:

- أمّي ساءت حالتها. كنت وحدي، فقصدتكم لأنقلها بمساعدة والدتكم إلى المستشفى، إن لم يكن في ذلك إزعاج.

قلت مباشرة: «حسناً فعلتِ أنّك أتيت إلى هنا. عودي أنت إلى البيت، وأنا سأذهب إلى أمّي».

ركضت نحو الإدارة، كان بناء السكّة الحديديّة الإداريّ بناءً مؤلفاً من طابقين، ويقع إلى جوار محطّة السكّة الحديديّة. أرسلتُ عامل المطعم إلى أمّي. بعد لحظات عدّة، وصلت هلعة وقلقة إلى حجرة الحراسة. أخبرت أمّي بالأمر

بسرعة على النحو المبهم والناقص نفسه الذي سمعته من مينا فارتاح بالها قليلاً. ظنّت أن شيئاً قد حدث لي.

كانت السيّدة أكبري ملقاة في زاوية الغرفة صفراء الوجه، وكانت تشخر. كانت مينا قد جلست جوارها قلقة مكتوفة اليدين، كانت علب عدّة من الحبوب والشراب ملقاة حولها. احتضنت أمّي السيّدة أكبري بمساعدة مينا:

- عزيزي حميد، اذهب وأوقف سيارة!

إلى أن وجدت سيارة ونقلناها إلى المستشفى استغرق الأمر ربع ساعة. في المعاينة الأوليّة شخّص الطبيب أنها تعرّضت لاحتشاء ناقص، ولو كانت قد تأخّرت بضع دقائق في الدخول إلى المستشفى لما كان أحد قد تمكّن من فعل شيء. ثمّ أمر أن يجهزوها للفحوص الدقيقة. كانت مينا قد وقفت جانب الباب واجمة، وكانت تحدّق إلى زاوية. ذهبت أمّي نحوها:

- ماذا حدث حتى ساءت حالتها؟

قالت مينا بصوت مرتعش:

- ليلة أمس حين كانت تستمع إلى رسائل الأسرى الإيرانيّين عبر إذاعة العراق، صرخت فجأة: والدك! والدك! وبعد الفرح أخذت تضحك. مهما فعلت لم أستطع أن أسكتها، وكانت تقول باستمرار: أرأيتِ؟ لقد قلت إنّ والدك حيّ! الانفعال الزائد ليس جيداً لأجلها أبداً. لا أعرف ما الذي حدث حتّى شكّت برسالة إذاعة العراق. كان من المقرّر أن نذهب صباحاً إلى إدارة الجيش ليرتاح بالنا،

أمسكت يدي اليوم بعد الإفطار وقالت: لا داعي لذهابك. حاولتُ كثيراً فلم تقل السبب! ولكن حين رأت إصراري قالت: صرفت النظر عن الذهاب إلى إدارة الجيش. ومضت للقيام بأعمال المنزل. لم تكن قد مرّت ساعة حتى رأيتها قد وضعت يدها على قلبها وبدأت بالأنين. أعطيتها حبوبها وشرابها، لكنّهما كانا بلا جدوى. حين رأيت أنّي لا أستطيع فعل شيء، اضطررت لإزعاجكم. أخذت أمّي يدها بين يديها وقالت:

- حسناً ما فعلتِ، وحين تقع أيّ مشكلة تعالي إليّ!

قبّلت مينا وجه أمّي وشكرتها وقالت:

- أريد أن أذهب إلى إدارة الجيش لأرى إن كان والدي قد تحدّث ليلة أمس من إذاعة العراق أم لا.

قلت بسرعة:

- أذهب أنا، فهذا أفضل. ابقِ أنت عند أمّك.

قالت مينا:

- سأسبّب لك العناء!

قالت أمّي:

- إنهم يعرفون حميداً أكثر، وسيجيبونه أسرع.

كنت أريد أن أطمئنّ على السيّدة أكبري من جهة ثمّ أذهب، فتلكّأت قليلاً. فُتِح باب الغرفة، فاتّجهنا نحن الثلاثة إلى الطبيب وسألته أمّي بسرعة قبل الجميع:

- كيف حالها سيّدي الطبيب؟

نظر الطبيب إلينا:

- كما قلت، لحسن الحظ زال الخطر.

اتّجه إلى مينا:

- أنت ابنتها؟

هزّت مينا رأسها بالإيجاب، فتابع الطبيب:

- كانت تردّد اسمك باستمرار، يمكنك الذهاب عند رأسها، لكن لا تتكلّمي كي لا تنفعل.

لم يكن من داعٍ للبقاء. اتّجهت إلى المصعد، كان معطّلاً. استدرت نحو السلّم فسمعت:

- كيف أنت أيّها المقاتل!

أدرت رأسي. لم أكن أصدّق، كان حبيباً، قائد عمليّة هضبة الحياة في كردستان، فاتّجهت إليه مسروراً.

- أنت هنا يا عديم الذوق وأنا أموت ضجراً من الوحدة؟

قبّلت وجنتيه، كنت قد غصصت من الفرح. قبّل حبيب وجهي أيضاً. كنت قد اشتقت إليه كثيراً. رجع بالكرسيّ المتحرّك إلى الخلف:

- ما أخبارك، ألم تر إنساناً؟

ضحكت:

- كيف أنت؟

ضحك هو أيضاً، كانت عيناه مملوءتين بالدمع.

- كما ترى!

ثمّ ألقى نظرة إلى كميّ الخاليين:

- أنت قد أرسلت يديك للشفاعة.

- مثل قدميك!

ثمّ تابعت:

- كنت أبحث عنك في السموات فوجدتك في الأرض، هنا!؟

أشار برأسه إلى نهاية الممرّ:

- أحد أصدقائي تعب قلبه، فجئت لزيارته. ماذا تفعل أنت هنا ؟

قلت: «أتعرف السيّد أكبري؟»

- ذاك الذي كان يعمل في مصنع صبّ الحديد؟

- نعم! ليلة أمس، سمعت زوجته صوته من إذاعة العراق. وعلى أثر الانفعال الشديد أصيبت بجلطة خفيفة. أنا الآن ذاهب إلى إدارة الجيش لأرى إن كان أكبري قد تحدّث من إذاعة العراق أصلاً ليلة أمس أم لا، فالتشويش منعهم من التأكّد .

أشار إلى يديَّ الناقصتين:

- لم تترك الرسم أليس كذلك!

رفعت كتفيّ:

- كيف؟

ورفعت كميّ الخاليين:

- بهذين؟

نظر حبيب مندهشاً، فسرقت نظرتي منه، لكن كنت أشعر ثانية بثقل نظرته كالمسمار في عيني. قلت عاجزاً وملتمساً:

- هل أكذب؟

قال بانزعاج:

- ألا تخجل من التفوّه بهذا الكلام؟

ثمّ صمت قليلاً وقال:

- سنقيم مباراة غداً بعد الظهر، وعليك المجيء حتماً.

سألت:

- مباراة ماذا؟

ضحك:

- مباراة كرة طائرة! أنا بانتظارك!

نظر إلى ساعته:

- وقت الزيارة يمضي.

سحب كرسيّه نحو الممرّ المقابل:

- الساعة الرابعة بعد الظهر أنا بانتظارك.

- سآتي بالتأكيد.

وقفت ونظرت إليه إلى أن عبر منعطف الممرّ.

* * *

- متى كان توقيتها بدقة؟

تنحنحت:

- قلت ليلة أمس!

سأل شابّ الحرس:

- أقصد ترتيبه أي شخص كان؟

هززت رأسي:

- لا أعرف!

وضع ورقة أمامي:

- اكتب اسمه والمعلومات المتعلقة به.

تراجعت إلى الخلف، ربما لم يمكّنه علوّ الطاولة من رؤية كُمَّيَّ الخاليَين.

- تفضّل! هذا قلم.

رفعت كميّ:

- أنا معذور!

نظر إليّ مبهوتاً لحظات عدّة، ثمّ خرج من خلف الطاولة بارتباك. احتضنني. في البداية قبّل كميّ الخاليين فقلت بانزعاج: «ماذا تفعل يا أخي؟»

رفع رأسه، كانت عيناه مملوءتين بالدمع.

سأل بعد بضع لحظات من الصمت:

- قلت ماذا كان اسمه؟

- عبد الله أكبري!

كتب على الورقة:

- تفضّل بالجلوس، أنا سأتابع الموضوع.

أخذ الورقة وخرج من الغرفة. كان المسؤول عن قسم العلاقات العامّة والسمعيات والبصريات المتعلّقة بالجيش. حين دخلت لم أكن أعرف القسم الذي يتعلّق عملي به، لذا أول مكان خطر في بالي كان هذا. كنت قد تعبت، فجلست على الكرسي جانب الطاولة. كان الجدار مملوءاً بصور الشهداء، عرفت بعضهم. كنت أنظر إلى الصور حين فتح الباب ودخل ذلك الشابّ:

- أعتذر عن تأخّري عنك.

ثمّ تابع بسرور:

- أعتقد أني وجدته.

قاطعته بفرح:

- أكان نفسه!

هزّ رأسه:

- من المحتمل جداً، لكن حين يريد أن يلفظ اسم عائلته يزداد التشويش. فليس واضحاً أيقول أفسري أم أكبري. الآن سيضعون الشريط في الجهاز ليزال التشويش، إن كنت ترغب تعال لنستمع معاً.

قلت بسرور:

- أكون شاكراً.

خرجنا معاً من الغرفة. صعدنا السلّم الذي كان في نهاية الممر. كان الممرّ مملوءاً بصور الشهداء. في الطابق التالي دخلنا أول غرفة من جهة اليمين. بعد السلام والسؤال عن الأحوال وضع شابّ الحرس الذي كان هناك الشريط في الجهاز، وبدأ بإدارة براغيه، مرّ الشريط مرّات عدّة من المكان المطلوب، لكنّ شدّة التشويش لم تدع الصوت يصل إلى الأذن واضحاً وصافياً، بعد إدارة الشريط مرّات عدّة استطاع في النهاية أن يوصل التشويش إلى الحدّ الأدنى. هذه المرّة كان الصوت يسمع جهورياً وواضحاً:

- بسم الله الرحمن الرحيم أنا عبد الله أصغري...

أطفأ الشابّ الجهاز.

- مع الأسف!

قلت بانزعاج:

- ما إن قال بسم الله حتى عرفت، صوته مختلف جداً.

أخرج شابّ الحرس الشريط:

- كم هي متعبة وظيفتنا! إن استجدّ شيء ما مرّة أخرى فنحن في خدمتكم.

الفصل السابع

حين وصلت كانت اللعبة قد بدأت. كان ضجيج اللاعبين قد ملأ الصالة، ولم يكن هناك متفرجون. عدا أشخاص عدّة جلسوا على المنصّة المقابلة، وكانوا يتحدّثون معاً وعيونهم على اللعبة. جلست على المصطبة المقابلة للحكم. لم أكن قد غيّرت جلستي في مكاني حتى اصطدمت الكرة بالأرض بعيداً عن أيدي شباب فريق حبيب الذين يرتدون الأبيض. نظرت إليه، كانت شفته متدلية انزعاجاً، فضحكت. كان واضحاً أنّه متعب ولم يعد يمتلك القدرة على متابعة اللعب. نهضت من مكاني كي ينتبه إليّ، فاتّجه نحو الأرض ورشّ ماءً على رأسه ووجهه، لم يرني. جلست مكاني، نظرت إلى لوحة النتائج. كانا متعادلين، وكانت النتيجة هدفين مقابل هدفين. كان من الطبيعي أن تخور قواه في جوّ الصالة الحارّ؛ فأنا - مثلاً - لم أكن أستطيع أن أتنفّس جيّداً وبشكل صحيح، فكيف لو كنت أقفز من هذه الجهة إلى تلك الجهة لأضرب الكرة! نهضت من مكاني ثانية. هذه المرّة أردت أن أناديه، فرآني. لوّح لي بيده وضحك، جلست مكاني، كانت الكرة مستقرّة في أرض الخصوم. صفّق واحد أو اثنان من المتفرّجين، ضرب حبيب بيده، فاستقرّت الكرة وهي تئنّ في أرض الخصوم، حرّك لي حبيب قبضته وضحك، لوّحت له مرّة أخرى.

قال حبيب:

- ألا يلزمكم شيء؟ لا خبر عن المؤونة منذ ثلاثة أيّام!

علا صوت خداداد:

إن كان التمر كالمرّة الماضية، فيكون ذلك نوراً على نور!

أمسك حبيب رسن البغل بيده وقال ضاحكاً:

- إن كان لديهم رزّ معلّب، فسآخذ رزاً رشتيّاً لقاسم، أخاف أن تصيب لعنته حمارنا.

قال قاسم:

- لا يا حاج، إن لم يعطوا فلا تلحّ.

سألت بصوت عال:

- هل تريد أن آتي معك؟

أشار حبيب إلى كَرْم في الجهة اليمنى من الهضبة:

- اذهب! فقد قال الشباب المطلعون إن أفراد (الكومله) قد استقرّوا أيّاماً عدّة. من الأفضل ألا تخلو الهضبة. الثلج لا يهطل. بدأت ريح باردة وجافة بالهبوب، وأصبح الجبل والصحراء المقابلان أبيضين تماماً. كان حبيب يهبط من طريق الدوابّ الذي اختفى تحت الثلج، فقد ذهب وعاد من هذا الطريق عدّة مرّات حتّى إنّهم لو كانوا قد عصبوا عينيه لقطعه ذهاباً وإياباً دون أي خطأ. يقع مخزن إمدادات الهضبتين على مسافة منّا، وللوصول إلى هناك يجب العبور من صحراء صافي التي تقع بشكل كامل تحت أنظار العراقيّين. إنّ حبيباً عارف بتفاصيل الطريق

كلّها؛ يعرف كيف، ومن أين، وبأي سرعة يسير حتّى لا يتنبّه العراقيّون، لم يكن قد حدث معه شيء حتى اليوم. كان الجبل الأبيض كالمناظر التي كنّا قد رأيناها في آثار الرسّامّين اليابانيّين، جميلاً ومملوءاً بالرموز والأسرار. علا صوت أحمد:

- مدّوا بطّانيّة!

إنّها من تلك الليالي التي كان البرد فيها إعصاراً، منذ أن انفصلنا أنا ورضا عن بعضنا في مريون لم أشعر بهذا الضيق كلّه قطّ. قرب الظهر لم أكن أستطيع تحمّل جوّ الخندق نصف المظلم، فذهبت نحو باب الخندق.

- لا تزح الستارة مرّة أخرى!

أزيح البطانيّة وأخرج دون أن أنظر إلى أحمد، آخذ نفساً عميقاً وتصعد نظرتي إلى أعالي الجبل المقابل لي. كانت القوّات العراقيّة مستقرّة في ذاك العلوّ، كانت تحرّكاتنا كلّها تحت أنظارهم. صحا الجوّ، ظهرت السماء بلون أزرق غامق، ولم يكن قرص الشمس يحمل كثيراً من الدفء. في أوّل ليلة كنت قد أتيت فيها إلى هنا تجمّد أحد شباب الحرس من البرد، فحمله حبيب على كتفه وهبط به الهضبة بعناء شديد، وأوصله إلى المقرّ الأصليّ الذي كان على طريق السيارات؛ أيّ طريق للسيّارات كان ذلك أيضاً! فلم تكن تهبط أربع أو خمس سيارات إلى الهضبة في اليوم. اتجهت بنظري إلى الصحراء، لم يكن هناك خبر عن حبيب عامل معمل سكّة الحديد. كان يلعب كرة القدم أيضاً، كنت قد سمعت أنه دعي مرّة أو مرّتين لتدريب فريق منتخب المدينة كذلك. كان يمتلك جسداً رياضيّاً ضخماً، كان يستطيع بسهولة كبيرة أن يحمل حملاً كاملاً وأن يصعد من أسفل الهضبة. رأيت أحداً يهزّني، فقفزت

من نومي مذعوراً. إنّه حبيب. حين رأى أنّي قد صحوت، ضربني على خدّي حتّى إنّ الشرر تطاير من عينيّ. في البداية حزنت كثيراً، لكن حين قطعوا رأس أحد الشباب في الأسبوع التالي عرفت أيّة خدمة أسداها إليّ بعمله هذا!

لا أثر لحبيب في أسفل الهضبة ولا في الأرض المسطّحة التي لم تكن مخفية عن أعين العراقيين أيضاً. الليلة دوري في الحراسة. من الساعة الثانية عشرة حتى الثانية. أكوّر قبضة من الثلج وأقذفها أسفل الهضبة. ليته كان بالإمكان بسط عدّة الرسم هنا. كنت قد ذهبت مرّة إلى الجهة الأخرى من الهضبة، رأيت بين أشجار البلوط أسفل الهضبة بيتاً مهجوراً مما جعلني أتأثّر بشدّة. كانت الملابس لا تزال معلّقة على الحبل، وكانت الدجاجات والدّيَكة حائرة في باحة الدار. لم يكن معروفاً أيّ بلاء حلّ على رأس سكّانه، في تلك اللحظة أخرجت قلم الرصاص والدفتر الصغير ورسمت صورته. رسمت صورة تذكارية لمقهى إلى جوار قرية دزلي حيث كنا نمضي أوقات الفراغ هناك ونشرب الشاي.

يعلو صوت الانفجار، فأدخل تحت لوح حجريّ كبير موجود جواري. إنها قنبلة موقوتة، المسافة وصوت الانفجار يدلان على أن الهدف ليس هضبتنا. أنظر بقلق إلى أسفل الهضبة. أشعر بالقلق على حبيب، تقع عيناي على نقطتين سوداوين تزحفان إلى طرف الهضبة. تزاح البطانية، يسأل خداداد بقلق:

- ماذا حدث؟

أشير بيدي إلى أسفل الهضبة:

- أظنّ أنهم رأوا حبيباً!

يعلو صوت أحمد:

- احترس، لا تذهب إلى حيث يرونك!

أهبط من ذاك المسير الذي سلكه حبيب. أنزلق مرّات عدّة، كدت أسقط. حين أصل ينقطع انفجار القنابل، وجد البغل مكاناً جيّداً إلى جوار اللوح الحجريّ. أركض نحو حبيب. لقد سقط على بطنه، على الثلج. لقد مزّقت شظايا القذيفة رجليه وظهره. غرق جسده كلّه بالدماء. أدني رأسي من وجهه وأناديه:

- حبيب! حبيب!

يفتح حبيب عينيه:

- أين البغل؟ هل حمولته سالمة؟

أجيبه:

- دع البغل! أنت كيف حالك؟

اقترب من الأرض، كان قد أمسك ظهره بيديه وكان يلهث. دخل شخص آخر الأرض بدلاً منه. ذهب حبيب نحو مصطبة الذخائر. كان يسحب نفسه على الأرض بصعوبة. لم يكن قد بقي شيء حتّى نهاية المباراة. كان الفريقان يلعبان على نحو متكافئ ولم يلحق أحدهما الهزيمة بالآخر. كانت إحدى عينيّ على حبيب والأخرى على المباراة. كلّما كان فريقه يتقدم كان يصفّق ويضحك، وحين كان يتراجع كانت هيئته تصبح كما لو أن أكبر هموم الدنيا قد عشش في قلبه.

انتهت المباراة بهدفين لمصلحة الفريق الذي يرتدي الأبيض. سحب حبيب نفسه على الأرض وأخذ يقبل زملاءه. نزلت عن المصطبة. لم يكن ينتبه إلي، صرخت:

- مبارك سيد حبيب، جهودك مباركة!

كانت الضحكة تملأ وجهه المتعب.

- جُعِلتُ فداك! سآتي إليك.

ذهب أولئك الأشخاص أيضاً، وكانت الصالة خالية. ذهب شباب الفريقين إلى غرفة تبديل الملابس. بعد قليل خرج حبيب من غرفة تبديل الملابس، كان جالساً على كرسيّه المتحرّك.

- كيف كانت؟ هل أعجبتك؟

- كأنّك رياضيّ منذ الولادة! كأنه قد أكل الدهر عليك وشرب!

جفّف رأسه ووجهه بتأنّ. وضع المنشفة في حقيبة يده.

- الرياضة في دمي كما أنّ الرسم في دمك. أيمكنك أن تترك الرسم؟

بكلامه هذا كتم أنفاسي. أتمنى من الله ألا يتابع. كنت أبحث في ذهني عن موضوع أستطيع فيه تغيير مجرى الحديث. تابع:

- لم تقل ماذا فعلت بلوحاتك؟

سألت:

- أي لوحات؟

تقدّم:

- اللوحات التي كان من المقرّر أن ترسمها عن الحرب؟

كنت أعرف ما يرمي إليه منذ البداية، لذا، رفعت كميّ الخاليين لأقول كلمتي الأخيرة.

- بِمَ أرسمها! بهذين!

نظر إليّ بعصبيّة. سأل بعد صمت:

- ألا يمكن الرسم بغير اليدين؟

ابتسمت بتهكّم:

- تفضّل قل لي بِمَ أرسم اللوحات؟

- بقلبك.

ضحكت وابتعدت عنه:

- إنّ بالك مرتاح!

تحرّك نحوي، وصل مقابل باب الدخول.

- قلبك هانئ؟ هذا هو!

رفع رأسه وأخذ نفساً عميقاً، وتابع:

- لِمَ ذهبت إلى الجبهة أصلاً؟ أكانوا يوزعون النّقل وسكّر النبات فلم تفكّر بالنتائج؟ علاوة على ذلك، ألم يكن من المقرّر أن ترسم كلّ ما رأيته وشعرت به هناك مهما كانت الظروف؟ أتذكر كم حدّثتني عن الحظّ والقدرة المؤثّرة والخالدة الموجودة فيه؟ على هذا المنوال كان ذلك الكلام كلّه ترّهات، نعم والله يا عمّ!

كان قد قال هذا الكلام كلّه لي. لكنّ ظروفي كانت تختلف جدّاً الآن، لم أكن أعرف بأيّ لغة أجعله يتفهّم وضعي. في النهاية خرجت من فمي:

- لو كنت مكاني لكنت قد انتحرت!

توقّف فجأة، نظر إليّ بإنكار. قال:

- ألا تخجل؟ أتفهم ما تقول أصلاً؟

كان قاسياً معي حتّى إنّه لم يكن من الممكن أن أتحدّث عن العجز والضعف ثانية.

خرجنا من الملعب. كان هو نفسه، حبيب كما عرفته في السابق. كان واضحاً أنّه قد انزعج جداً. تمنّيت لو أجعله يقول ما في قلبه، فسألته:

- أنت ماذا تفعل؟

- أعيش، أستمتع بحياتي! أشعر أنّ الحياة جميلة ومحبّبة جداً!

قلت: «حسناً. ماذا تفعل أيضاً! ؟»

تابع بتلك اللهجة نفسها:

- أتظنّني أمزح؟ لقد عرفت قيمة نفسي حديثاً، في البداية كنت أظنّ أنّ لديّ قدمين فحسب؛ لكن مذ فقدتهما علمت أن لديّ يدين أيضاً، لديّ عينان أيضاً، لديّ أنف أيضاً. لذا بدأت حديثاً أشعر، بكياني كلّه، كم الدنيا جميلة؛ كم هي جميلة الرائحة! كم هي محبوبة!

قلت لمزاً: «أصبحت شاعراً أيضاً!»

هزّ رأسه:

- نعم أصبحت شاعراً، لذا لم أفكّر أبداً أنّ الدنيا قد انتهت لأنّي فقدت قدميّ.

وصلنا إلى مصحّ المعاقين. كان بناؤه يبدو آجريّاً ومؤلّفاً من طابق واحد.

- لندخل!

قلت: «لا! يجب أن أذهب إلى مكان ما».

أمسك بكمّي:

- كم أصبحت متكلّفاً! تعال دقيقة لترى الشباب ثم اذهب.

دخلنا الباحة. كان محيطها كلّه مزروعاً بالورد، كان أشخاص عدّة على الكراسي المتحرّكة يتحدّثون معاً تحت شجرة، تهلّل وجه حبيب لهم. كانت تفوح من المصحّ رائحة الهمّ والحزن، كان وجه حبيب الفَرِح والضاحك محبّباً. كنت أنا من حمّلت هذا الإحساس لنفسي ولهذا المكان. كانت توصيات صحيّة عدّة قد ألصقت على الجدار، انعطف حبيب إلى الممرّ الواقع في الجهة اليسرى، دخل الغرفة الثالثة.كانت غرفة بثلاثة أسرّة، كانوا قد وضعوا طاقة ورد على أحد الأسرّة. كان قد استلقى شخص على بطنه على السرير الآخر. سلّمت، فأدار الرجل المستلقي على بطنه رأسه نحوي بصعوبة. وضع الجانب الأيمن من وجهه على الوسادة، نظر وردّ على سلامّي. ألقى حبيب نظرة إليه:

- انقطعت أنفاسنا حتى أتينا به، ليتك كنت وسمعت هراءه قبل اللعبة. حميد من مصابي الحرب.

أشار إليّ برأسه، فهززت رأسي تأييداً لكلامه وابتسمت، تابع حبيب:

- حميد رسّام، كنّا معاً في كردستان، ينوي إقامة معرض للّوحات التي رُسِمَت في الجبهة.

نظرت إليه متعجّباً، تابع حبيب كلامه دون أن يهتمّ بنظرتي.

- لوحاته لا غبار عليها!

وقال ووجهه إليّ: «ابقَ! سأعود الآن».

ورفع صوته أكثر:

- عزيزي موسى! سَلّه، سأعود سريعاً.

خرج من الغرفة، فسأل موسى:

- أي تقنية تستخدم؟

كنت أفكّر كيف أغيّر مجرى الكلام، فقال ثانية:

- أنا أيضاً كنت مهتمّاً بالرسم بشدّة. حين كنت في الثانوية كنت أرسم مناظر جيدة بالألوان المائية، لكنّي تركت ذلك.

قاطعته:

- أين أُصِبْت؟

نظر إليّ:

- في شلمجة.

كان وضعه الظاهريّ يدلّ على أنّه عاجز تماماً، حدّقت بعينيه، كنت أريد أن أرى العجز والضعف في نظرته، لكنّي لم أشعر بشيء، تابع:

- الآن ألعب الشطرنج أكثر الوقت، إنّي أعوّد نفسي على إجراء الحسابات الرياضيّة في دماغي.

أيّدت كلامه بحركة الرأس، كأنه كان قد تشجّع بفعلي هذا.

- الآن أصبحت نشطاً من عنقي إلى الأعلى، أصبحت منذ مدّة أتعرّف على كلّ من يدخل الغرفة بوساطة حاسّة الشمّ. أعرف الأشياء كلّها من رائحتها.

كنت أنظر إلى السرير الفارغ، قال موسى:

- لقد استشهد منذ أسبوع. كانوا يريدون إخراج سريره، لكنّ حبيباً لم يَدَعهم.

كان حبيب قد ألصق على الجدار المجاور لسريره صوراً له وهو يرمي الكرة. كان قد رفع الكأس بيده في إحداها، وباقي لاعبي كرة القدم قد تحلّقوا حوله في أخرى.

- كنت قد قلت إنهم قد دعوه مرة أو مرتين أيضاً إلى فريق المنتخب.

لم أكن قد سمعت صوت كرسيّه المتحرّك.

- بالتأكيد أنت أيضاً قد شرّفتهم!

قال ضاحكاً:

- نعم، لكن بسرعة أدركوا أنهم قد أخطؤوا واستنكفوا. غير ذلك كان من المقرّر دعوتي إلى فريق كرة السلّة الوطني.

وضحك:

- أرجو فحسب من الله ألّا يدركوا خطأهم بسرعة.

رفع نفسه عن السرير. كنت أتمنى لو أساعده، لكن لم يكن بإمكاني. تدحرج على السرير، فسألته:

- حالك ليست على ما يرام؟

سحب نفسه تحت الملاءة وأجاب وهو يتنفس بصعوبة:

- أنا جيّد، ولكنّي متعب قليلاً.

مضت لحظات عدّة. هدأت أنفاسه قليلاً، فسألني:

- متى ستبدأ؟

سألت متعجّباً:

- بماذا؟

- بالرسم!

اتّكأت على حافّة السرير وقلت بأسىً:

- أيّها الرجل الطيّب، أيمكن الرسم في هذا الوضع؟ وها أنت تنشر الخبر باستمرار.

ابتسم:

- سترسم! وكيف سترسم أيضاً!

كنت قد انزعجت من إصراره:

- أتظنّ أنّ الرسم ككرة الطائرة تنهيه برمي الكرة أربع مرّات هذه الجهة وتلك الجهة، وفي النهاية تُدعى إلى الفريق الوطني؟

قال بهدوء واتّزان:

- الأمر واضح لديّ كالنهار، إنّك لا تستطيع الفرار من هذا الأمر. في تلك الأثناء التي كانت تفصلك فيها عن الشهادة في الجبهة لحظة، وقد قطعت ذلك العهد على نفسك أمام المقاتلين، أتظنّ أنهم سيَدَعونك تنقض عهدك بهذه السهولة؟ من الأفضل أن تبدأ عملك على الفور.

رفعت كمّيّ الخاليين، ونظرت إليه بأسى:

- بهذين!

قال بانزعاج: «أراني إيّاهما مرّة أخرى. بأيّ شيء... بأيّ شيء يرسمون؟».

- بالفرشاة!

تابع:

- نعم! بأيّ شيء يمكن إمساك الفرشاة به. المهمّ هو الموهبة التي تمتلكها وذلك الإحساس الذي أوجدته الحرب فيك. تأكّد - ما لم تتحرّك - أنّ كثيراً من الشباب الذين أصيبوا واستشهدوا سيُنسَون بعد سنوات عدّة، سيصبحون غرباء ومجهولين ولا أحد سيذكر شهادتهم ومبارزاتهم. يجب ألا تدع هذا الأمر يحدث.

وهو يتكلّم، أشار إلى السرير المجاور له. حين انتهى كلامه، نظرت إلى الصورة التي كانت فوق السرير على الجدار؛ كان وجهاً مألوفاً، لقد كان يوسف قائد مجموعة التخريب.

- لا تضطرب، لن يحدث شيء، فقط ركّز وتوكّل.

أضع سلك صمّام الأمان بين فكّي قطاعة الأسلاك. أغلق القطّاعة، فلا ينقطع السلك. أنظر إلى صمّام اللغم الذي أصبح حسّاساً، كانت رعشة يد خفيفة كافية لخروج الصمّام وانفجار اللغم. لا يستحقّ المخاطرة، أريد أن أعطي باقي العمل ليوسف. لا ينتبه إلى ما أقصده، فيشير بحركة رأسه لأتمّ العمل بنفسي. يتصبّب جبيني عرقاً. بعد شهرين من التعليم أجرّب للمرّة الأولى تنظيف حقل الألغام حقّاً. يفكّك يوسف اللغم الأول بسهولة شديدة، يبدو لي الأمر سهلاً كحين كنّا نفكّك الألغام التعليميّة. لا أعرف لِمَ بدأت أشعر بالقلق حين جاء دوري. أمسح كفّ يدي المتعرّق ببنطالي، ينظر يوسف إليّ ببرود. إذا انفجر سنطير كلانا في الهواء.

أمسك السلك بقطاعة الأسلاك مرة أخرى، أحبس أنفاسي في صدري.

- لا ترتبك فحسب. حينها تستطيع تفكيك أكثر الألغام حساسيّة.

يصدر السلك صوتاً واحداً وينقطع.

- متى استشهد؟

قال حبيب: «قبل أسبوعين. هل تعرفه؟»

لا أستطيع تحويل نظرتي عن يوسف:

- كان قائد مجموعة التخريب.

قال حبيب: «لقد التهبت كليتاه».

اقتربت أكثر. كان يوسف يضحك. كانت ملامح وجهه نفسها التي كنت أراها حين يفكّك الألغام. كانت عيناي مملوءتين بالدموع.

لم يكن قد مضى شهر على انضمامي إلى مجموعة التخريب حتى ضرب يوسف قلب العدوّ بعمليّة فدائيّة مع مجموعة التشخيص، أُخْبِرنا أنّه جُرِح ولم أعرف عنه شيئاً بعد ذلك.

عدت. لم أكن أستطيع أن أبقى في تلك الغرفة. دخلت الممرّ، فَعَلا صوت حبيب:

- إلى أين بهذه السرعة؟

كدت أصل من الصالة إلى باب الخروج حين لحق بي وأمسك كمّي بقوة:

- تذكّر فحسب أنّ هؤلاء الشباب سيتحوّلون بعد الحرب إلى أشخاص مجهولين بين الناس. أنت المذنب! أنت وأمثالك!

قلت بعجز وحرقة: «ماذا يمكنني أن أفعل؟»

ترك كمّيّ:

- يجب أن تبدأ بأسرع وقت. إنّ عيوننا كلّها تتطلّع إلى فنّك!

ابتسمت باستهزاء، فحدّق إلى عينيّ:

- لقد رأيتك في الحلم قبل ليال عدّة، كنتَ ترسم بألف يد. لم أكن أعرف حينها أنّك أصبت، حين رأيتك في المستشفى في هذا الوضع فهمت تفسير حلمي.

وقف على مسافة منّي وقال بإصرار:

- تعال إلينا ثانية، مع السلامة!

خرجت إلى الشارع. لم تكن لديّ القدرة على المشي أصلاً. جلست على مصطبة دكّان. كانت ساحة المدينة مقابلي، وفي وسطها تمثال الفردوسي.

كان الجلوس بلا فائدة، ولافتاً لأنظار المارّة لا غير. سرت. مررت من بين القضبان الحديدية. كان والد رضا يقف إلى جانب مراقب السكّة الحديديّة. سلّمت عليه، فردّ سلامي بسرور وسأل:

- لا نراك يا ولدي!

رفعت كتفيّ:

- أنا مقيم في هذه الناحية دائماً، قل لرضا الذي قد تبخّر وصعد إلى السماء.

تنهّد الرجل العجوز:

- أنا أيضاً لا أعرف عنه شيئاً، ليس معلوماً ماذا يفعل أصلاً!!

سألت بتعجّب:

- ألم يقم معرض الرسم؟

قال الرجل العجوز بانزعاج:

- أيّ معرض! كنت سعيداً أنه سيبيع عدداً من لوحاته وسيقيّد المال والشهرة يده، لكنّ المعرض لم يبلغ يومه الثاني.

سألت بحيرة:

- لِمَ؟

جلس الرجل العجوز على كرسيّ صغير جانب غرفة مأمور تقاطع السكّة الصغيرة:

- بسبب أسرة ملينا. أرادوا الذهاب إلى الغابة والبحر ولا أعرف إلى أين ليروا أماكن عدّة أخرى، فعطّل رضا المعرض أيضاً وسار خلفهم. إنّي لا أتصوّر أنّ هؤلاء سيعطوننا ابنتهم.

ونظر إليّ:

- أنت ماذا تقول؟

لم أكن أعرف ماذا أقول. كنت أخاف أن أقول شيئاً فأزيد من آلامه، فقلت لأمنحه الهدوء:

- قال رضا إنهم قد حدّدوا موعد عقد القِران.

كانت نظرته قد أصبحت حزينة:

- منذ أيّام عدّة وهو منطوٍ جدّاً، أخشى أن يلعبوا به. الأمر بيده في النهاية، فإن رأيته انصحه أن يترك تلك الفتاة ويعود إلى حياته وعمله. إنّ رضا يسمع كلامك، فمهما أقل له لا يصغي إلى كلامي. أحياناً لا يتكلّم معي أيّاماً عدّة.

قلت:

- سأتكلّم معه بالتأكيد.

مرّت لحظات عدّة من الصمت. سأل:

- كيف حال يديك؟

نظرت إلى كمّيّ الخاليين:

- إنّهما تؤلمانني لو لامستا شيئاً.

قال العجوز: إن شاء الله...

قطع كلامه، وقال بعد صمت:

- سيعوّضك الله خيراً إن شاء الله، لأنّك ضحّيت بصحّتك وشبابك في سبيله.

شكرته، وانطلقت نحو المنزل بعد أن ودّعته.

كان رضا مفرطاً في أموره دائماً، حين كان يحبّ أمراً كان لا يهدأ حتى ينهيه. كان الآن قد أصبح مرهوناً بهذا الأمر، كان الله وحده هو من يعلم إلى متى سيستطيع المتابعة والتحمّل.

علا صوت صافرة القطار. لم أكن أستطيع تحويل نظرتي عن غروب الشمس، فبعض الأشياء الجميلة لا يمكن وصفها بأيّ شكل؛ يمكن القول فحسب إنّها عظيمة وعميقة. وغروب الشمس أيضاً من هذا النوع من الجمال، فحين أحدّق فيه أرى نفسي عاجزاً وضعيفاً أمام فنّ الرسم الذي يمكن أن يبدع لوحات بهذا الجمال والعظمة.

فتحت باب البيت نصف المفتوح بمقدّمة قدمي، كانت أمّي تجلس على إحدى الدرجات وتحدّق إلى الباب، كأنّ ساعات قد مضت وهي على هذه الحال. حين رأتني متعباً نهضت من مكانها. سلّمت، فردّت سلامي. سألتها:

- حالك ليست على ما يرام؟

لم تقل شيئاً. سألتُ:

- كيف حال السيدة أكبري؟

قالت: «أصبح حالها أفضل، وقد أخرجوها. كيف أنت؟ هل قضيت وقتاً جيداً؟».

- لا بأس.

الفصل الثامن

كانت نظرتي على باب المرسم المغلق حين جاء رضا. صاح:

- السلام عليك يا عديم المعرفة! ذهبت ولم نعد نراك!

لم أكن أتوقّع رؤيته، اتّجهت نحوه بسرور:

- تتغدّى بي قبل أن أتعشّى بك، دعك منّي، لكن لِمَ لا تسأل عن والدك؟ السلام عليك!

ربت على كتفي وضحك:

- شكا لك أيضاً؟ منذ مدّة وكل من رآني يقول لي: انتبه لوالدك العجوز! أنت قل؛ ماذا أفعل له؟

قلت:

- إنّه قلق عليك كثيراً.

اتّجه رضا إلى الغرفة:

- أنا أيضاً قلق عليه. لم يحدث شيء لينزعج إلى هذا الحدّ. في النهاية أخاف أن يصيبه مكروه من هذا الحزن والاضطراب اللذين لا مسوّغ لهما.

ثمّ نظر حوله وتابع ضاحكاً:

- أين انتباهي! قل لي لِمَ تذهب إلى الغرفة؟

أمسك بكتفي وجذبني نحوه:

- لنذهب كي نتمشّى. والدتك ليست هنا؟

- ذهبت للتسوّق.

خرجنا من باحة الدار. كان متأنّقاً؛ كان يرتدي قميصاً أزرق ذا مربّعات وبنطالاً فاتح اللون. كان شكله هذه المرة قد اختلف من الأرض إلى السماء. قلت ضاحكاً:

- لقد غيّرت جلدك!

ضحك هو الآخر:

- أليس لك عينان لترى هذه أيضاً؟ القميص هديّة من ملينا، والبنطال أحضره أقاربها من موسكو أيضاً.

مسح بيده على بنطاله:

- نوعه ممتاز!

مررنا من جانب ثانويّة السكّة الحديديّة. كان باب الصالة الكبرى للمعرض مغلقاً. سألته:

- أين وصلت في المعرض؟

رفع كتفيه:

- لم يلق إقبالاً واسعاً؛ الناس هذه الأيام منشغلون بمعيشتهم حتى إنّه لا طاقة لديهم للمجيء إلى أماكن كهذه.

قلت بلمزٍ: «أي ناس تقصد؟».

ضحك:

- كأنّ والدي قد أخبرك بكلّ شيء! أليس كذلك؟

حين كنّا صغاراً، كان أيّ منا يصعد الجسر الهوائيّ أبطأ فعليه أن يشتري شيئاً للرابح.

صعدنا الجسر.

- إنّهم أسرة مرتاحة البال، لم يكونوا يعرفون هذه المنطقة، فطلبوا مني أن أرشدهم. حين رأيت أنّ المعرض لا يلقى كثيراً من الإقبال جمعت لوحاتي وذهبت معهم.

وقفنا فوق جسر المشاة، لو نظرت من الأعلى لتمكنت من رؤية المنطقة المحيطة بالسكّة الحديديّة كلّها، من المحطّة والمعمل إلى المستشفى وبيوت المؤسسة القديمة والجديدة والمدرسة الثانويّة. حتى البحر الذي كان خطّاً دقيقاً من الأفق.

كنت أستشعر الفرح في كلّ خليّة من خلايا وجه رضا، كان ينظر حوله بدقّة حين قال بحسرة:

- سأشتاق إلى هؤلاء جميعاً.

سألته بتعجّب:

- هل حدث شيء؟

ضحك:

- من المقرر أن تعود أسرة ملينا إلى موسكو. فبسبب التغيير الذي حدث في الاتحاد السوفييتي ستكون الحياة هناك أفضل من إيران بالنسبة إليهم. حين كنّا قد ذهبنا إلى الجبل قبل أسابيع عدّة، اقترح والدها بشكل غير مباشر أن أذهب معهم.

قاطعته:

- أقبلت؟

نظر نظرة غريبة وسأل:

- لو كنت مكاني لما قبلت؟! ماذا يريد الأعمى من الله غير عينين بصيرتين؟

قلت بانزعاج: «كأنّك تريد أن تركل حياتك كلّها بأسفل قدمك. أنا لا تعجبني هذه الشعارات ولا أشياء كهذه. لكن في النهاية...».

لم يدعني أكمل كلامي:

- يجب أن تعشق كي تفهم لِمَ أفعل هذا!

ونظر إلى كميّ الخاليين. لم أقل شيئاً، وهو أيضاً لم يتابع.

مرّت لحظات عدّة ثمّ بدأ ثانية. كانت لهجته هذه المرّة مستعطفة:

- أنا لا أريد أن أبقى هناك إلى الأبد، فما إن يتمّ الأمر الذي أريده حتى أمسك بيد زوجتي وأعود إلى إيران. هم بخير، ونحن بسلامة.

سألته:

- ما رأي ملينا؟

قال: لم تسنح الفرصة لأتحدّث معها، لا أظنّ أنّها سترفض. بدأتُ في هذين اليومين بتعلّم اللغة الروسيّة كي لا تواجهني مشكلة حين أذهب إلى هناك. إنّها لغة صعبة جدّاً.

مسح بيده على شعره الطويل ووجهه الأملس، لم أره سعيداً ومسروراً على هذا النحو منذ مدّة، كان يتكلّم عن مستقبله وكأنه قد رأى كلّ ما يتكلّم

عليه. كنت أرجو أن أشاركه السعادة، لكنّ همّ فقد أفضل الأصدقاء ومستقبله المبهم كانا قد أقلقاني.

كانت الغيوم السوداء، بهجومها المؤذي على الجبال المجاورة، قد ملأت السماء بعد ساعة أو ساعتين. كان الحارس في الجهة الثانية من المحطّة، وكان والد رضا يشير إلينا بيده. كان رضا يدير ظهره له، فقلت: «والدك ؟!».

التفت، لوّح بيده لوالده، فسألته:

- هل يعرف والدك؟

- سأخبره.

- إخباره ليس سهلاً.

سألته ثانية:

- هل ستأخذه معك؟

أجاب:

- إلى موسكو! أيمكن ذلك! علاوة على هذا، لو كنت أستطيع فلن يرضى أن يترك حياته ويذهب إلى ديار الغربة.

هبطنا الدرج.

- متى ستنطلق؟

ضحك:

- سيُعلَم ذلك بعد يوم أو يومين.

قلت بانزعاج:

- سأشتاق إليك.

توقف عن الحركة ونظر إليّ:

- أنا أكثر منك!

قلت لمزاً:

- أنت قلت، وأنا كذلك صدّقت.

ضحك واحتضنني بسرور، قبّل وجهي. هبط الدرج إلى الأسفل جرياً.

قلت بصوت عال:

-أنا سأذهب!

لوح بيده لي وذهب نحو حارس المحطة. صرخت:

- لا تقطع أخبارك عني!

لا أعرف أسمع أم لا.

كانت سلّة التسوّق جانب الباب. جلست على الدرجة. بذهاب رضا كنت قد أصبحت وحيداً جدّاً. من الجيّد أنّي وجدت حبيباً. كان بإمكانه أن يملأ الفراغ الذي سيتركه رضا لديّ، كان كلامه يحيي في داخلي إحساساً صاخباً.

حين تحدّث عن حلمه شعرت أنّي أستطيع بسهولة أن أكسر الطلسم الذي وقعت فيه وأرتقي. كان حبيب يتحدّث بيقين وثقة عن الأعمال التي يجب أن أقوم بها، كأنّ هذه الأحداث نفسها يجب أن تحدث ولا أحد يستطيع أن يقف في طريقها. تسمّرت نظرتي إلى باب المرسم المغلق، كحين خرجت من بيت أكبري وكان الشوق إلى الرسم والإبداع قد لفّا وجودي كلّه. أسلمت وجهي الملتهب للريح وأغمضت عينيّ.

- أمعلوم أين أنت؟

فتحت عينيّ. كانت أمّي.

- سلام، أين كنتِ؟

ألقت أمّي (تشادورها) على الحبل، ثمّ ذهبت نحو صنبور الماء، وألقت قبضات عدّة من الماء على وجهها.

- كانت مينا قد أتت. ذهبت معها لأستطلع أحوال السيّدة أكبري. أين كنت قد ذهبتَ؟

- كنت قد خرجت مع رضا. يريد أن يذهب إلى موسكو.

نظرت أمّي بتعجّب:

- إلى موسكو؟ لِمَ؟

قلت بانزعاج:

- اقترح والد ملينا أن يذهب معهم ليعيش هناك. لقد جنّ الولد البريء!

جفّفت أمّي وجهها بـ (التشادور) وسألت بفضول:

- ووالده؟

رفعت كتفيّ:

- لا شيء، سيبقى هنا. كيف كانت السيدة أكبري؟

قالت أمّي:

- أفضل! كنت سأنسى. كانت مينا قد أتت...

توقفت قليلاً ثمّ تابعت بانزعاج:

- يكاد الولد أن يقوم بفعل عجيب. ختم الله عاقبته وآخرته بالخير. أريت لوحاتك لـ (مينا)، فأعجبتها كثيراً.

اعترضت: «لِمَ فعلتِ هذا؟»

- أنت أيضاً بهذه الأخلاق! ألم ترسم اللوحات ليراها الناس؟ علاوة على ذلك، إنّ مينا تلميذتك، ويجب أن تتعرّف إلى أعمال أستاذها!

وقفت أمام باب الغرفة وهزّت رأسها:

- استعارت بعض الصور التي كنت قد رسمتها لكردستان بريشتك.

قلت بانزعاج: «ماذا فعلتِ؟».

علا صوت صفارة الإنذار. بعدها هزّ الأرض انفجار من مسافة قريبة جدّاً. ركضت نحو أمّي. كانت قد توقفت عن الحركة، وكانت تنظر حولها مندهشة واجمة، صرخت:

- تعالي! تعالي!

أمسكت أمّي كمّي، فركضت نحو باب الدار وانبطحت.

هزّ انفجار آخر الأرض. قلت:

- أبق فمك مفتوحاً.

هزّت أمّي رأسها وهي تهمس بدعاء، كحين كانت الطائرات العراقيّة تضرب خنادقنا، ولم يكن بإمكاننا فعل شيء. اهتزّ البيت وباحة الدار ثانية في هذه المرة أشد من المرات السابقة، بحيث أنّها جعلتنا نصطدم بالجدار بقوة. صرخت أمّي:

- يا قمر بني هاشم!

ألقيت نفسي فوق أمّي، كان تركيزي وانتباهي منصبّين، كلّهما، على ألّا يحدث لها مكروه. مرّت لحظات عدّة، لم يحدث شيء. رفعت رأسي ونظرت

حولي، كانت باحة الدّار قد امتلأت بالدخان والغبار والتراب. كانت أمّي قد تكوّرت جانب الجدار. هزّت رصاصات هوائية عدّة الأبواب والجدران، فانحنيت بقلق نحو أمّي:

- أمّي! أمّي! لم يحدث شيء!

فتحت عينيها:

- لم تُجْرَحي؟

كان وجهها مملوءاً بالغبار والتراب. هزّت رأسها مبهوتة واجمة:

- لا! هل أنت بخير؟!

مددت كمّيّ نحوها. اتّكأت أمّي على الجدار دون أن تمسك كمّيّ ونهضت. كان زجاج الأبواب والنوافذ قد تكسّر كلّه قطعاً صغيرة. لكنّ البيت لم يكن قد أصابه ضرر جديّ. لم يكن قد بقي شيء من المرسم. تأوّهت بحسرة:

- لوحاتي!

كانت قطع جدار المرسم الخشبيّة قد تطايرت كلّ منها في زاوية، ولم يبق من أثر للّوحات. كأنّها لم تكن في وقت ما، كأنّ شيئاً من وجودي قد تلاشى. ما أسهل ما أصبحت الذكريات والعلاقات التي تصلني بالماضي كلّها دخاناً وذهبت أدراج الرياح!

- ألم يصبكم شيء؟

كان من موظّفي حراسة المعمل، كان قد أطلّ برأسه من جدار المرسم الخلفيّ المتهدّم. أجبت بانزعاج: «لا، لوحاتي تلاشت!»

ألقى نظرة على البيت وباحة الدار، ثمّ أدار رأسه نحو الشخص الذي كان في الناحية الأخرى من الجدار ولم أكن أراه:

- هذا القسم من جدار باحة دارهم فحسب قد تضرّر، وانكسر زجاج النافذة.

جلست وسط المرسم المحروق، حاولت جدّاً أن أتجاهله. لقد فقدته في الوقت نفسه الذي كنت أريد أن أذهب إليه. لقد تلاشى ماضيّ كلّه؛ الماضي الذي كان - على حدّ قول حبيب - يمكن أن يكون حافزاً لصناعة مستقبلي. ارتطمت يد ما بكتفي، فرفعت رأسي؛ إنّها أمّي.

- انتهى كلّ شيء لديّ. من رضا ذاك الذي سيذهب، إلى لوحاتي هذه و المرسم.

داعبت شعري:

- لقد سلم رأسك. وجودك هو الأهمّ.

دخل أشخاص عدّة من الجيران باحة الدار وذهبت أمّي لاستقبالهم. إلى أن تحرّكت كانت باحة الدار قد غصّت بالمحتشدين. كانوا جميعاً يريدون أن يعملوا شيئاً وأن يساعدوا. جمعوا الزجاج وقطع الخشب والآجرّ بطرفة عين وسلّمونا باحة الدار نظيفة نضرة. تقرر أن يأتي أحد عمّال السكة الحديدية في أقرب فرصة ويبني الجدار. حين ذهب الجميع دخلت باحة الدار. خرجت من القسم المتهدّم من الجدار. جعلني الدخول إلى محيط السكة الحديدية من مسير غير عاديّ أشعر أنّي قد وضعت في جوّ جديد. فتقدّمت. كانت القنبلة قد أصابت الأرض الخالية بين بيوت المؤسسة والمعمل؛ حيث تبعد عن بيتنا مئة متر. اقتربت من الحفرة التي كانت قد أوجدت من اصطدام القنبلة.لا يزال

الدخان يعلو من داخلها. كان موظفو الحراسة قد تحلّقوا حولها ولم يسمحوا لأحد بالاقتراب. كانت القنبلة الأولى قد اصطدمت بالحقل المجاور للمعمل لكنّها لم تنفجر. كان قد وقع أمر سيّىء لكنّ كلّ شيء كان يبدو حديثاً وجديداً. كانت صينيّة ديزل القطار الكبيرة المستديرة الدوّارة التي تبدّل السكّة سالمة. ذهبت وجلست فوقها، فدارت مرّة حول نفسها. وحين وصلت إلى النقطة الأولى، قفزت وجلست على الأرض. تقع بيوت المؤسسة القديمة والخَربة في الجهة الأخرى من السكّة. كان هاجس قديم يجذبني نحوها بلا سبب. ربّما كنت أريد أن أجد أثراً للماضي الذي كنت قد فقدته هناك. عبرت السكّة، فوصلت إلى بيتنا القديم. كان البيت بلا باب أو هيكل، وكان فاقداً للتنظيم. قفزت كلاب شاردة عدّة من الغرف، نبحت وخرجت من باحة الدار.كانت تفوح من الغرف رائحة التعفّن والتفسّخ. كانت الجدران سوداء، وكانت زوايا الغرف وجوانبها ممتلئة بالصحف القديمة وفضلات الكلاب الشاردة.لم أستطع أن أحيي أي ذكرى في نفسي من المطبخ الصغير والغرفتين الصغيرتين المتداخلتين وشجرة الدار اليابسة.على جدار إحدى الغرف كانت قد ثبّتت صورة باهتة ألوانها بوساطة مسمار كبس، لم أتذكر وجوه أولئك الذين كانوا في الصورة. كانت ضربة واحدة تكفي لكسر الشجرة اليابسة والخالية من الثمر، كانت تحيي فيّ ذكرى بعيدة ومؤلمة لهذا البيت؛ كسر يدي اليسرى. كان ثمّة قضيب حديديّ قد خرج من الأرض أمام الباب، حاولت مرّات عدّة أن أخرجه، لكنّي لم أستطع. خرجت من البيت راكضاً يوم نقل الأثاث، فعلقت قدمي بهذا القضيب وسقطت على الأرض وكسرت يدي اليسرى التي بقيت تحت جذعي، وبقيت شهرين معلّقة في عنقي. ربّما كانت هذه الحادثة سبباً لتمحى الأحداث السعيدة التي وقعت لي في هذا البيت وتزول كلّها من

ذاكرتي. خرجت من المنزل، عدت وألقيت نظرة أخرى على البيت. خطوت خطوة أخرى غير راغب، فجأة علقت قدمي بجسم صلب؛ فانزلقت مرّات عدّة. استطعت بصعوبة أن أحفظ توازني. عدت ونظرت إلى مكان النتوء، كان ذاك القضيب الحديديّ نفسه. ضربته ضربات عدّة بمقدّمة الحذاء. هذه المرّة كنت قد نجوت منه سالم الروح! وصلت إلى صفّ بيوت المؤسسة الجديدة. كان يصل إلى مسامعي صوت موسيقا عسكريّة من منزل أحد الجيران. كانت عمليات ليلة أمس قد بدأت.

الفصل التاسع

وضع المعلّم عبّاس قطعة حديديّة أمامي:

- «أترى ماذا فعلت!».

عاد نحو الجدار المتهدّم. خلط بعض الرمل والإسمنت معاً وصبّ الماء في وسط الخلطة بالإبريق الذي كان جانبه. خلطها معاً بقضيب بحيث لم تسقط قطرة ماء واحدة خارجها. رفع رأسه وتابع:

- إنّها تذيب الفولاذ، فلحم الإنسان سهل.

كانت تبدو حادّة جداً. سحبّ المعلّم عبّاس الآجرّ المكسور من الجدار.

- ليكن الأمر بيننا. لقد أحضر لي بهرام فوارغ طلقات كثيرة ورشاشاً. هذه المرة من المقرر أن يحضر فوارغ كبيرة، أريد أن أجعل منها زهريّة.

نظرت مرّة أخرى إلى قطعة الحديد التي كانت قد وجدت مكان الانفجار، كانت نموذجاً لتماثيل انتزاعيّة. كان يمكن الاحتفاظ بها للديكور.

صبّ المعلّم عبّاس الملاط على صفّ الآجرّ وسوّاه بالـ (مصطلين). رصف فوقه صفّ آجرّ، ضرب بأسفل الـ (مصطلين) على الآجرّ. علا صوت باب الدار، فإذا هي أمّي. حين تنبّهت للمعلم عباس، غطّت نفسها بالـ (تشادور) ثانية وقالت من هناك:

- «سلام معلم عباس، عافاك الله!»

رفع المعلّم عبّاس رأسه:

- سلام يا أختي. عافاك الله!

- هل أحضرت الرسوم؟ سلام!

جلست أمّي على المصطبة أمام الباب، وضعت سلة الخبز على الأرض. ردّت سلامي وقالت: «لم تكن موجودة؛ فقد ذهبت إلى الجامعة».

سألت بانزعاج:

- لم تكن أمّها تعرف أين وضعتها؟

قالت أمّي: «لا، لم تكن تعرف. قلت لها أن تحضرها لك حين تأتي إن لم تكن تحتاجها».

أردت أن أعترض ثانية لكن خفت أن تقول، ليس في ذاك الحامض حمض، ولا في هذا المالح ملح.

نهضت أمّي من مكانها وذهبت إلى الغرفة. كان الواجب شكرها،لأنها أعطت هذه الرسوم لمينا، وإلا لكانت قد فقدت أيضاً. منذ أن ذهبت لوحاتي كان قد تولّد لديّ شعور كما لو أنّ أحداً محا ما فيّ جميعه. كنت الآن مولوداً جديداً؛ بلا أيّ ماض. كان أمامي مستقبل مبهم وغير معلوم ليس إلّا. مستقبل كان يمكن أن يوجد هوية جديدة لديّ؛ يعلو بي إلى الأوج أو يؤدّي إلى سقوطي.

خرجت أمّي من الغرفة تحمل صينيّة وجبة العصر:

- لقد تعبتَ يا معلّم عبّاس. تفضّل وجبة العصر!

نظر المعلّم عبّاس إلى الصينيّة:

- إنّك تخجليننا. ليحفظ الله لك حميداً.

سألته أمّي:

- ما أخبار بهرام؟

أجاب المعلّم عبّاس من فوق اللوح:

- وصلت رسالة منه منذ أسبوع. إنّه يسلّم على الأصدقاء والمعارف جميعهم.

سألته:

- ألم يكن في العمليات؟

- لا، أرسلوه إلى كردستان قبل العمليّات.

قالت أمّي: «ألا تريد أن تشمّر عن ساعدك لأجله!».

رصف المعلّم عبّاس صفّاً من الآجرّ فوق الملاط، قفز عن اللوح واتّجه إلى صنبور الماء. أعطت أمّي منشفة كانت بجانب الصينيّة للمعلم عباس.

- سلمت يداكِ يا أختي!

جفّف يديه ووجهه، ألقى المنشفة على حبل الغسيل وجلس جانب الصينيّة.

- لم تقل!

ابتسم المعلم عباس بانزعاج:

- لا تضعي يدك على قلبي؛ فهو مملوء بالدم. أليس كافياً أنّي أريته بنات عدّة؟ من العائلة والأقارب، ومن جيراننا. شهرام الذي يصغره بسنتين يلحّ عليّ ليتزوج، لكنّ بهرام ليس هنا.

قالت أمّي: «ما آخر ذلك؟».

غمس المعلّم عبّاس الخبز بالمربّى:

- تفضلا!

ووضع اللقمة في فمه.

- لقد صرفت النظر. أمّه فحسب تقول شيئاً أحياناً، لكنّها تعرف أنّه لا توجد أذن صاغية لكلامها.

رفع كتفيه وتابع بفم ممتلئ:

- لا أعرف ما آخر هذا الأمر، لقد عقد قرانه على الجبهة الآن.

ابتلع اللقمة:

كلّ ما أخشاه هو أن يفقد يديه ورجليه، لا قدّر الله، وغداً إن وقع المحظور ليس فقط لن يجد الزوجة، بل فلن يجد من يهتمّ به أيضاً.

رمقني بنظرة، وانطوى على نفسه فجأة. كان يعرف أنّه قد نطق خلاف المطلوب منه. تجهّم وجه أمّي، أردت أن أقول شيئاً فرفع رأسه ثانيةً، وقال محاولاً أن يضحك:

«البارحة تزوّج أحد الشبّان المصابين في الحرب قريباً من بيتنا. لا يمكن أن تدركوا أيّ ضجيج وجلبة كانوا قد أقاموا».

ثم أشار إليّ بحاجبه وتابع:

-ألا تفكّرين بحميد؟

كانت أمّي لا تزال متجهّمة. علا صوت الباب:

- يا الله!

كان صوت أنثى. دخلت مينا من الباب، فنهضت أمّي:

- تفضّلي.

مضت نحوها بسرور. نظر إليّ المعلّم عبّاس، شرب رشفة من الشاي وضحك. نهضت من مكاني.

حين رأتني مينا جمعت (تشادورها) ورتّبته:

- كيف حال أمّك؟

قالت: «بخير الحمد لله».

وأشارت إلى ربطة كانت قد أعطتها لأمّي:

- «هل تعذرني لأنّي قد أخذتها دون إذن من مرسمك؟ الحقيقة...».

قاطعتها أمّي:

- ما هذا الكلام يا بنتي؟ بالمناسبة؛ لقد كنتِ ملاك النجاة بالنسبة إليها. لو لم تكوني قد أخذتِها لكانت قد ذهبت.

نظرت مينا إلى مكان المرسم الفارغ بانزعاج:

- لقد كانت لوحات جميلة جدّاً، خسارة أنّها أتلفت.

أدارت رأسها نحو أمّي:

- لو سمحتِ لي سأستأذن بالذهاب. أعتذر مرّة ثانية أني احتفظت بها طويلاً.

ذهبت أمّي معها.

- ما هذا الكلام يا بنتي؟ سلّمي على أمّك!

جلستُ على العتبة، فأتت أمّي إلى جانبي ووضعت الفرشاة على رجليّ.

- لقد ارتاح بالك.

صففت إلى جانبي اللوحات الخمس التي كنت قد رسمتها في كردستان.

- لا يمكنك الفرار من هذه لأنّ الله قد حفظها لك.

ألقيت نظرة على الرسوم، رفعت رأسي.

- منذ أن التقيت حبيباً عاد إلى الحياة في داخلي صخب عجيب. كأنّ إحساساً يقول لي إن بقائي حيّاً مرهون بالرسم.

قبّلت أمّي جبهتي:

- ستحيا إلى الأبد، إن شاء الله، ففي كلّ ليلة أرى في المنام أنّك ترسم.

- مبارك إن شاء الله. الآن متى سنأكل الحلوى بهذه المناسبة؟

كان المعلّم عبّاس. كان قد رصف الصفّ الأخير من الآجرّ.

ضبطت أمّي نفسها وسألت:

- حلوى ماذا؟

ضحك المعلم عباس وأشار بحاجبه إلى الباب.

- ما الأمر يا معلّم عبّاس؟

ضحك بدل أن يجيب، بعد ذلك صفّ قطع الآجرّ الزائدة بعضها فوق بعض جانب الجدار، جمع الرمل والإسمنت الباقي ووضع أغراضه في كيسه. أمسك الكيس بيده واتّجه إلى صنبور الماء:

- انتهى عملي يا حاجّة، ائذني لي بالمغادرة!

نهضت أمّي من مكانها:

- لقد تجشّمت العناء.

كان الانزعاج من كلام المعلم عبّاسي لا زال واضحاً في سلوكها وكلامها.

اتّجه المعلم عباس نحو الباب:

- لقد كان واجبي، إن شاء الله سنأكل حلوى عرس حميد أفندي عمّا قريب.

* * *

كنت قد ارتبكت، لم أكن أستطيع الاستمرار، انحنيت، فتحت فمي فسقطت الفرشاة على الطاولة وخلّفت على غطائها بقعاً حمراء. نظرت إلى قماشة الرسم بتعب وانزعاج. كانت مملوءة بالخطوط المتداخلة والألوان فاقدة الترتيب التي لم أكن أرى فيها أيّ إحساس، لم أكن أستطيع أن أرى فيها أيّ أثر لما كان يدور في قلبي وذهني. كان فكّي وأسناني قد بدأا يؤلماني. ربّما كانت هذه المسألة قد جعلتني غاضباً أكثر. لم تكن بداية العمل مدعاة للتفاؤل، وكانت تتقدم أبطأ ممّا كنت أظنّ. لم أكن أرى في خطوط العمل أيّ علامة على تناسق الماضي ودقّته. كان يؤلمني الشعور بأنّي لا أستطيع أبداً التقدّم خطوة واحدة من

نقطة البداية. ما أسهل ما مزّقني ذلك الهيجان والشوق الذي أوجده فيّ حبيب والذي ذهبت به أمّي إلى القمّة! أوصلتني مساعيّ العبثيّة في هذه الساعات إلى نتيجة مفادها أنّ أسناني لا يمكن أن تحلّ أبداً محلّ يديّ. كانت يداي قد تربّتا خلال سنوات بحيث تستطيعان أن تعملا باتّزان، كمفكّر، على اختيار الخطوط؛ وكرسام منياتور، على مراعاة الجماليّات الدقيقة اللازمة في رسم الجزئيّات دون أن يوجد أي تنبّه منّي إلى هذه الأعمال. وحين كنت أفكّر أن أتوقّع هذا كلّه من أسناني وشفتيّ، كان عليّ أن أقتنع أنّ كلّ شيء قد تلاشى مع يديّ.

جهّزت أمّي أغراضي قبل الذهاب إلى الإدارة؛ وضعت الألوان على الطاولة، غسلت الفرشاة ووضعتها بجانب الألوان، ونصبت لي قماشة الرسم. كنت دائماً في صراع مع نفسي في بداية الأمر. كلّ كلام كنت أسمعه عن الأمل والجدّ كنت أمرّره في ذهني. سقطت الفرشاة في أثناء العمل مرّات عدّة من فمي وأمسكتها ثانية بأسناني بصعوبة. كنت أريد بوجودي كلّه أن أصبح ثانيةً ذلك الرسّام الذي كنت. لكنّ رسم الخطوط على اللوحة بهذه الطريقة البدائيّة والمراوحة في نقطة الصفر لم تكن قد أبقت لي أيّ مجال للتفاؤل. لم تكن الفرشاة تابعة لي، كان رأسي يرسم بنفسه خطوطاً منحنية ومعوجّة على القماشة، وكان ما يعذّبني بشدّة أنّ كلّ خطّ مهما كان حجمه وشكله فهو ذو معنى. ولم تكن لديّ القدرة على تحمّل أني أصبحت كفارس مبتدئ أسير الحصان الذي يسحبني إلى أيّ مكان يريده.

رأيت في الحلم أنّك ترسم بألف يد.

- كلّ ليلة كنت أحلم أنّك ترسم.

كانت الأحلام تربّي آمالاً عابثة في قلبي. آمالاً واهية. نظرت إلى عدّة الرسم بحزن. هذه التي كانت مألوفة وحميمة ومحبوبة لديّ أصبحت الآن غريبة ومدعاة للعذاب، ولم أكن أستطيع إقامة ارتباط معها على أيّ نحو. لم تكن لديّ القدرة على تحمّل البقاء في الغرفة، كلّ ما في الغرفة كان يسخر منّي. خرجت من الغرفة، كان مطر غزير وقويّ يهطل. وقفت وسط باحة الدار، رفعت وجهي إلى السماء وأغمضت عينيّ. ليت قطرات المطر كانت تستطيع أن تغسل كلّ ما في داخلي من آثار اليأس والقنوط والعجز وتأخذه معها. كان مطر الربيع قد اشتدّ، طأطأت رأسي فرأيت قطعة الحديد التي كان المعلّم عبّاس قد أحضرها معه، تشعر أنّها ستتفتّت بعد لحظة تحت ثقل المطر، كنت ستتعجّب لشدّة ما تراها لامعة وقويّة وجميلة. فجأة ظهرت أمّي وقالت:

- لِمَ وقفت تحت المطر؟

- ادخل! ستصاب بالبرد.

سلّمت عليها، فتابعت أمّي معترضة:

- ألا تعلم أنّ بنيتك أصبحت ضعيفة، وأنّ نسيماً عليلاً يمكن أن يسقطك؟ فكيف بمطر بهذه الغزارة!

ألقت أمّي (تشادورها) المبلّل على علاقة الملابس، أخذت منشفة. في البداية جفّفت رأسي ووجهي، ثمّ شعرها ووجهها. كانت قد اتّجهت وهي منهمكة هكذا إلى قماشة الرسم، فقالت بإعجاب:

- أأنت من رسم هذه الخطوط والألوان؟

كانت لهجتها كلهجتي حين كنت أحاول أن أشجّع تلميذاً كسولاً أو ضعيفاً. لم أجب، نظرت إليّ:

- لقد رسمت جيداً جداً. لم أتوقّع ذلك.

جلست على الكرسي بانزعاج:

- يمكن الحديث عنها دون عطف وشفقة أيضاً.

كان وجه أمّي قد تجهّم، كأنّها لم تتوقّع هذا الكلام منّي. توقّفت لحظات عدّة وقالت:

- لقد قلت ما أشعر به. لم يخطر في بالي العطف عليك أو الشفقة أصلاً.

ثمّ ابتسمت واقتربت مني:

- في أي مكان تضع قدمك، ذهب...

لم أعد أحتمل الاستمرار، نهضت من مكاني بانزعاج ووجّهت ركلة قويّة للوحة وقذفتها إلى زاوية الغرفة. حدّقت إلى اللوحة، التي كانت تمزّقت من وسطها، بحيرة وعدم تصديق. لم أكن أصدّق أني فعلت هذا. نظرت إلى أمّي بخجل، كانت تنظر إليّ وكأنّها لا تعرفني. كانت قد كوّرت المنشفة في يدها. طأطأت رأسي. لم أستطع تسويغ فعلي هذا على أيّ وجه. مرّت لحظات عدّة بصمت. رفعت رأسي، كانت أمّي قد ذهبت والمطر قد توقف.

* * *

كأنّي كنت أركب الغيوم وأجول وحيداً في السماء، تملّكني شعور بالوحدة والعزلة لحظةً إذ أحاط بي الخوف. أدرت ظهري لعمود جسر

المشاة. كان ضباب كثيف قد لفّ كلّ شيء. كأنّ ستائر من (التّول) كانت قد علّقت في الجهات الأربع، ولم يكن بالإمكان رؤية ما وراءها. حين خرجت من المنزل لم يكن الجوّ ضبابياً إلى هذا الحدّ. كانت أمّي قد ذهبت إلى المؤسّسة التعاونيّة، كنت قد مللت الوحدة. منذ البارحة لم يصدر عنّي أي فعل، لم تُبْدِ أمّي أي شيء، لكن على الرغم من ذلك الضبط التامّ للنّفس كان يمكن الشعور بالحزن والانزعاج في عمق نظرتها وسلوكها. في البداية أردت أن أذهب إلى رضا، فقلت ربّما كان مشغولاً بملينا وأسرتها. قرّرت أن أمرّ على حبيب لأخرج من هذا الفراغ. لم أكن قد بدأت بصعود الدرج حتى بدأ الضباب يتكاثف، وإلى أن وصلت إلى أعلاه كان قد لفّ المدينة كلّها. كانت ريح خفيفة تضرب وجهي بذرّات الضباب الباردة واللاصقة، كنت أشعر ببرودة الضباب وأدركه بجميع مشاعري. في هذين اليومين اللّذين مضيا على تمزيق قماشة الرسم كنت أشعر بشيء من الفراغ والملل لم يكن لي عهد بهما من قبل. أعرف أنّي لا أستطيع مواجهة الصعاب بالنفسيّة المنكسرة الحسّاسة التي أصبحتُ عليها، يجب أولاً أن أعدّ نفسي لحياة نباتية بلا تحرّك، وهذا التصور كان يؤدي إلى اضطرابي وضياعي.

كان صوت القطار يُسْمَع من بين ذارّت الضباب المتراصّة بعضها فوق بعض. نظرت إلى أسفل الجسر؛ كان كلّ شيء قد غرق في البياض. أطلق القطار صافرة أخرى. أدرت رأسي حولي، كان الضباب قد أصبح أكثر كثافة من قبل. أخذت نفساً عميقاً، وغرقت في الضباب بكلّ ما فيه من التصاق وتراصّ.

الفصل العاشر

كنت، أنا ورضا، في الصورة بملابس ذات لون واحد وبشكلين متشابهين تقريباً، وكان أحدنا قد أمسك يد الآخر بقوّة، وكان دفتر الرسم في اليد الأخرى. منذ أن كان قد قال إنه سيذهب إلى موسكو لم أعرف عنه شيئاً. حتى حين سقطت القنبلة قريباً من بيتنا لم يكن قد مرّ عليّ. كم أشعر بالحنين إلى الأوقات التي كنا فيها دائماً معاً، أولئك الذين لم يكونوا يعرفوننا كانوا يظنون، للوهلة الأولى، أننا أخوان. منذ أن عشق رضا ملينا وفقدت يديّ في الجبهة اضطرب كلّ شيء، لم نعد يفهم أحدنا كلام الآخر. حتى إنّنا يواجه أحدنا الآخر أحياناً. لا تزال هناك علاقة مشتركة بيننا؛ كان كلّ منا قد فقد شيئاً من أجل العشق. أنا فقدت يديّ، وهو معتقداته الماضية؛ حتى بلده. مع وجود فارق؛ هو أنني لم أستطع التأقلم مع الوضع الجديد وأصابني الاضطراب والتزلزل، لكن لا يوجد أيّ تزلزل في عشقه وحبّه. حتى كأنّه كان مستعداً لو بقي لديه شيء أن يضحّي به في طريق العشق. على الرغم من أنّي لم أكن أستطيع أن أسوّغ عشقه، كنت أشعر بالضآلة والحقارة أمام قوّة حبّ رضا وتفانيه. دخل صوت الباب وصوت تعب أمّي إلى الغرفة معاً. وضعت كيس مكعّبات السكّر الذي يوزع على البطاقة في زاوية الغرفة. وقفت مكاني مضطرباً دون فعل شيء، لم أكن أستطيع أن أوضح لنفسي وضعي حين تكون أمّي بحاجة إلى مساعدة وأقف عاجزاً دون عمل شيء. كنت أتنحّى جانباً وأختفي أحياناً، وكنت أظهر نفسي منزعجاً أحياناً لتفهم أمّي أني غير راض عن هذا الوضع أصلاً.

ألقت أمّي (تشادورها) في زاوية الغرفة واتجهت نحو الثّلاجة. نظرت إليها بعجز. أخرجت زجاجة الماء البارد وشربت. كانوا قد أعلنوا توّاً عن مكعّبات السكّر التي توزّع على البطاقة، لكنّ ثقل كيس المكعّبات يدلّ على أنّها قد أخذت المخصصات السابقة، أيضاً. وضعت الزجاجة في الثّلاجة. دخلت لأقول شيئاً:

- عافاك الله!

التفتت أمّي نحوي، جفّفت عرق جبهتها:

- ذهب معارف رضا!

سألت بتعجب:

- أيّ معارف؟

جلست واتكأت على الجدار:

- أسرة ملينا وأقاربها.

تعجّبت. على الرغم من أنّي كنت أتوقّع ذلك، إلا أنّي متأكّد من أني سأفقد رضا يوماً ما إلى الأبد. لقد امتلك رضا جزءاً مهمّاً من ماضيّ. جلست على الكرسي بانزعاج:

- رضا، عديم المعرفة! ألم يستطع المجيء لحظة إلى هنا لأجل الوداع؟

دلّكت أمّي كعب قدمها وأصابعها:

- لكنّ رضا لم يكن معهم.

سألت بتعجّب:

- لم يكن؟! كان من المقرر أن يذهب معهم إلى موسكو! هو مَن قال ذلك.

لم تقل أمّي شيئاً. على الرغم من أني كنت قد سررت جدّاً لبقائه، لكنّ الشعور بأنّه من الممكن أن يكون قد طرأ أمر سيّىء منعه من الذهاب كان قد أقلقني.

قلت مرّة ثانية: «ربما لم تريه؟».

تنهّدت أمّي:

- يقولون إنّه كان يقف على جسر المشاة حين تحّرك القطار.

سألت للتأكد:

- هل رأيتِه بنفسك؟

قالت أمّي: «لقد رأته السيّدة صمدي».

ضحكت:

- السيّدة صمدي لا تصدق القول أبداً.

اتّكأت أمّي بيدها على الجدار ونهضت من مكانها:

- الجميع في المؤسّسة التعاونية كانوا يتحدثون عن رضا.

قلت بشكّ وترديد: «ربّما بقي رضا ليذهب مع متاعهم وأثاثهم».

قالت أمّي: «كانت السيدة نيكپور تقول إنهم قد أرسلوا متاعهم وأثاثهم منذ أيام عدّة».

كانت السيدة نيكپور جارة والد ملينا. على هذا الأساس لم يكن قد بقي مجال للشكّ في بقاء رضا. وقفت أمّي أمام الباب، كان شكلها مضطرباً جدّاً. قالت بقلق:

- اذهب لزيارة رضا!

واتّجهت إلى المطبخ. لم أكن أصدّق أصلاً، فقد كان رضا يتحدّث بثقة وكأنّ عرسهما قد أصبح قطعيّاً ويجب أن يعدّ أحد مواطني موسكو منذ الآن. لكن كيف حدث أن تغيّر كلّ شيء. كانت أمّي ترتّب مكعّبات السكّر داخل الخزانة، حين فتحتُ باب الغرفة قالت مرّة ثانية:

- حين تجده أحضره إلى هنا!

هززت رأسي وخرجت من الغرفة.

* * *

كانت أنفاسي قد انقطعت، جلست على المصطبة الإسمنتيّة بجانب باب الدار. ذهبت إلى كلّ مكان كان قد خطر في بالي. من جسر المشاة، إلى منزل والد ملينا ودكّانه اللذين كانا مغلقين ومقفلين، إلى صالة معرض المتنزّه وجميع مداخل ومخارج السكّة الحديدية. ذهبت إلى السيّد يحيى أيضاً، كان زملاؤه يقولون إنّ أحداً لم يره منذ الظهر. لم يكن لديّ عنوان أخته. فجأة خطر لي أن يكون قد ذهب مع السيّد يحيى في إثر ملينا لا قدّر الله. لم أكن أجد مسوّغاً لتصرّفهما هذا. طرقت الباب طرقات أخرى بيأس، لم يكن هناك من خبر أيضاً. كانت الشمس قد غربت ولم يكن هناك أيّ جدوى من الوقوف هناك. ظهر ظلّ من الجهة المقابلة. كانت امرأة، حين دنت مني حثّت الخطا قليلاً، نظرت إليها فلم أتمكّن من معرفتها.

-أين كنت قد ذهبت؟ إنّ السيّد يحيى يبحث عنك.

كانت السيّدة صمدي. عرفت أنها قد أخطأت، فسلّمت عليها وقلت:

- قرعت الباب مرّات عدّة، لم يكونا موجودين فقلت أنتظرهما.

علا صوت ضحكة خفيفة:

- الويل لي! أنت السيّد حميد. كيف حال أمك؟

- تسلّم عليك.

أشارت برأسها إلى باب منزل السيّد يحيى:

- ألم يأتيا بعد؟

هزّت رأسها بانزعاج.

- من الجيّد أن الولد لم يصب بالجنون، لقد كان عند الظهر كالمجنون. لابدّ أنّه قد هام في الجبل والصحراء الآن. ليلطف الله بشبابه.

ثم رتّبت (تشادورها).

- بلّغ سلامي!

وابتعدت. كانت السماء مظلمة وغائمة، لم يكن من الوقوف هناك فائدة.

* * *

حين استيقظت من النوم كان قماشة رسم صغيرة قد وضعت بجانب الطاولة، وكانت على الطاولة فرشاة وألوان أيضاً.

- حميد! حميد! تعال فالسيّد يحيى يريدك.

خرجت من الغرفة. كانت أمّي والسيّد يحيى يقفان أمام الباب، كان شكل الرجل العجوز أكثر تعباً ونحولاً من المعتاد.

ردّ على سلامي، فسألت:

- ما أخبار رضا؟

قال بلهجة متوسّلة:

- أزعجتك بمجيئي، أرجو أن تهتمّ به أياماً عدّة إن كان ذلك ممكناً.

قلت:

- أيّ إزعاج! ما هذا الكلام! حين سمعت الخبر، البارحة، بحثت عنه كثيراً لكنّي لم أجده. ذهبت إلى المنزل أيضاً لكن لم يكن هناك أحد.

تنهّد بانزعاج:

- كان قد ذهب إلى البحر، لقد وجدته بعد عناء شديد. كان يريد أن يبقى هناك، وقد أعدته إلى المنزل آخر الليل بالرجاء والتوسّل.

قالت أمّي:

- ليتك أحضرته إلى حميد!

- في الصباح الباكر ذهب ثانية إلى البحر.

والتفت نحوي ثانية:

- اذهب إليه إن لم يكن هناك إزعاج! أقنعه بأن يعود إلى المنزل. أنتما كأخوين؛ إنّه يصغي إلى كلامك.

قلت: «بالتأكيد سأعيده. ليكن بالك مرتاحاً».

كان جالساً على رمال الساحل ويحدّق إلى البحر، لم يكن على الساحل شخص آخر ، كان يكتب شيئاً على الرمال. لم يكن ينتبه إلى ما حوله، كأنّه كان

يسير في عالم آخر. كان بنطاله مبللاً بالماء. وصلت فوق رأسه، كان قد كتب على الرمل بخطّ كبير وعميق «ملينا». تحتها أيضاً كان قد رسم صورة فتاة، كان يداعب وجه البنت واسمها برؤوس أصابعه، كأنّه كان يتكلّم مع الاسم والصورة. لم أشأ أن أفسد خلوته. وصلت موجة كبيرة إلى ما تحت قدميّ، فتراجعت بسرعة، لم يبد رضا أيّ ردّ فعل. كان يجلس وسط الموج الذي يأتي ويذهب، وحين ذهب الموج لم يكن قد بقي أيّ أثر لاسم ملينا وصورتها.

كتب رضا على الرمال مرّة ثانية «ملينا». كأنّ هذا كان شغله منذ أن أتى. التفت ونظر إليّ، فقلت بهدوء:

- انهض لنذهب! الجميع قلقون عليك.

تابع رضا كلامه دون أن يهتمّ بكلامي:

- أريد أن أبقى وحدي.

ذهبت ووقفت قبالته:

- لا تتدلّل! بعملك هذا ستسلب والدك البقيّة الباقية من عمره.

- إن كان الأمر هكذا فأنت متفوّق عليّ!

نظر إلى كميّ الخاليين وتمدّد على الرمال:

- اذهب واتركني لأرتاح.

أتت موجة قوية أخرى نحونا، مرّت من تحت قدميّ. استطاع رضا أن يرفع رأسه فحسب، هذه المرّة تبلّل جسده كلّه.

- تعال لنذهب، البحر سيصبح هائجاً.

كان يتمدّد هكذا على الرمال بلا حراك، كان إصراري بلا فائدة. ذهبت وجلست على جذع شجرة مقطوعة كانت على طرف الشاطئ. نهض رضا في مكانه نصف نهضة:

- ماذا تريد منّي؟

لم أقل شيئاً. أخذ قبضة من الرمل ونثرها نحو البحر. اتجه إليّ وجلس في الجهة الأخرى من الجذع. كنّا قد بقينا صامتين لحظات عدّة. كان رضا يحدّق إلى البحر، فسألته بهدوء:

- ألم يكن من المقرّر أن تذهب معهم؟

نظر إليّ، كانت عيناه مملوءتين بالدموع، أَنَّ بحزن ويأس:

- ترى كيف تركوني وحيداً!

تنهّد بصعوبة، انحنى، أخذ كتلة من الرمل وضغطها في قبضته، فسُحِقت:

- لقد أدركت تغيّر سلوك والدها ووالدتها منذ اليوم الذي أتت فيه عائلتها من موسكو. لم يكونا يوليانني اهتماماً، كان اهتمامهما وعقلهما كلّهما موجّهين إليهم، لكن لم أستطع أن أتقبّل أن لا مكان لي في قلبهما فألصقت نفسي بهما على أيّ نحو كان. كنت أقول، كذباً، عن أيّ مكان كانوا يريدون الذهاب إليه إنّي أعرف ذاك المكان كما أعرف كفّ يدي. كنت أدرك أنّ هذه الأفعال لا فائدة منها، كنت بلا قيمة وكنت أدرك ذلك. أقمت معرضاً لألفت أنظارهم، أتى واحد أو اثنان منهم دقائق عدّة ثمّ ذهبوا بسرعة. كما أنّهم لم يقولوا متى يريدون الذهاب، حتى اليوم الأخير، وما موقع قلبي وسط ذلك ؟

قاطعته:

- ألم تقل لك ملينا شيئاً أيضاً؟

أراد أن يقول شيئاً لكنّه قطع كلامه، قال بعد لحظات عدّة من الصمت:

- مسكينة ملينا، إنّها تتألّم. كانت قد انزعجت جدّاً من تصرّفهم، فهمت ذلك من عينيها. في اليوم الأخير، لمّا كانوا يريدون الذهاب، تمنّى والدها لي التوفيق فحسب.

لم يستطع أن يتابع، كان الدمع قد ملأ عينيه، هزّ رأسه وهمس:

- بهذه البساطة! كأنّهم لم يكونوا كلّ شيء لديّ، وأنا قد تركت كلّ شيء لأجلهم...

صمت، فجلست جواره، لم يكن بوسعي أن أحتضنه؛ وكان هذا هو كلّ ما أتمنّاه.

- أتمنى لو أجلس على الشاطئ إلى الأبد، وأجذب رائحة ملينا التي تأتي بها الريح من تلك الناحية إلى داخلي بوجودي كلّه.

- انحنيت وقبّلت وجهه الملوّث بالطين:

- انهض لنذهب! ليس جيّداً أن يراك الناس بهذا الوضع.

- طأطأ رأسه، فقبّلت وجهه ثانية:

- انهض لأجلي! أرجوك. تعال إلى هنا بعد الظهر مرّة. أعدك أنّي لن أدع أحداً يزعجك.

نهضت عن الجذع، ونهض هو أيضاً من مكانه بصعوبة. كان يسحب نفسه خلفي مترنّحاً، لم تكن لديه القدرة على السير أصلاً. كانت سيّارات الركّاب تنتظر المسافرين على جانب الطريق كالعادة.

الفصل الحادي عشر

أنكمش إلى جانب جدار بستان محطّة السكة الحديدية، لا أريد أن ينتبه إلي أحد. إنّ عائلات السكّة الحديدية يذهبون إلى الجبهة. أمسك قبضة المقطورة وأقفز على درجتها. كانت المحطّة مزدحمة بالناس. لم تعد أمّي بعد، فقد ذهبت لتشتري شيئاً ما. كان رضا يقف على جسر المشاة وينظر إلى الأسفل بحسرة. ألوّح له بيدي، فيردّ عليّ برأسه. يوشك القطار على الحركة، لا خبر عن أمّي. يصفر القطار، فأصعد درجة أخرى. أرى أمّي تدخل المحطة راكضة، تعطيني كيساً بلاستيكياً مملوءاً بالفاكهة، وهي تلهث. أكبري جالس إلى جواري، تقول له أمّي:

- أملي الأول بالله ثم بك. انتبه إليه، عدّه ولدك.

أنظر إلى أمّي بانزعاج، كأنّي أذهب إلى الجبهة للمرة الأولى. يضحك أكبري ويربت على كتفي.

- عائلتي، أيضاً، كانت تبحث عن حميد لتوصيه بي.

يصفر القطار مرّة أخرى، أرفع يدي لأودع رضا، لكنّه قد ذهب.

- مع السلامة حميد أفندي!

انتبهت إلى نفسي. كان مراد يقف أمامي؛ إنّه من الشباب الذين يجب أن تقتفي أثرهم في الجبهة دائماً. في كلّ مرّة كنت أذهب إلى الجبهة كان معي، سواء في كردستان أو في الجنوب. تقدّم إلى الأمام:

- ادعُ لي!

لم أكن أريد أن أقول شيئاً فيغلبني البكاء، قلت بصعوبة:

- أنا محتاج إلى الدعاء!

عانقني. في البداية قبّل وجهي، ثمّ كمّيّ الخاليين. ما لبثت أن وضعت رأسي على كتفه وأخذت بالبكاء، فقبّل وجهي ثانية:

- لمَ تبكي؟ على الأقلّ أرسلت يديك للشفاعة. ماذا نقول نحن الغرباء هناك!

أطلق القطار صافرة أخرى.

- ادعُ لي!

قبّل وجهي ثانية وركض نحو القطار.

اتّكأت على الجدار، لم أستطع السيطرة على دموعي، كان الانتحاب قد جعل جسدي كلّه يرتجف. كأنّ العقد التي تكدّست في قلبي جميعها قد بدأت تنحلّ. وجدت نفسي بعيداً وغريباً عن الأشخاص الذين كنت أحبّهم وأشعر بهم بوجودي كلّه. كان القطار يبتعد عن المحطة ببطء، نظرت إلى آخر مقطورة، كانت تغدو بعيدة أكثر كلّ لحظة. ليتني كنت أستطيع أن أذهب معهم وأتحرّر من الغربة والوحدة القاتلتين. ابتعدت عن الجدار قليلاً، كان رضا على جسر المشاة. في هذا الأسبوع الذي مضى على ذهاب أسرة ملينا كان يجلس على الشاطئ صباحاً وعصراً ويحدّق في البحر، وبعد الظّهر وقت حركة القطار، كان يصعد جسر المشاة ويحدّق في القطارات.

كان عدد من الأشخاص يتّجهون نحو بستان السّكة الحديدية، جذبت رأسي بين كتفيّ، لم أكن أريد أن يراني أحد على هذه الحال، كان رضا يحدّق في شيء ما في الأسفل، كأنّه قد رأى أحداً يعرفه هناك. قلت لنفسي ربّما رأى السيّد يحيى، لكن لم يكن هناك أحد. كان أولئك الأشخاص يقتربون أكثر، فخرجت بسرعة من المحطّة. كانت ذكرى الجبهة قد جعلتني مضطرباً، ليتني كنت أستطيع تغيير هذه الحياة الساكنة التي لا حافز فيها. وصلت البيت، كنت مضطرباً. كانت أمّي جالسة وسط الغرفة، كانت قد وضعت باقات عدّة من أعشاب الأكل في صينيّة كبيرة، سلّمت عليها وسألتها:

- لِمَ كلّ هذه الأعشاب؟

ردّت على سلامي وقالت: «لقد نذَرَت السيّدة أكبري حساءً، وأنا أنظّف لها الأعشاب».

ثمّ نهضت من مكانها، رفعت الغطاء نارنجيّ اللون عن التلفاز وأخرجت رسوماً عدّة ووضعتها على الأرض:

- إنّها أعمال مينا، لقد أعطتني إياها لتخبرها عن إشكالاتها؛ قل وأنا أكتب، ثمّ آخذها لها.

تنحّيت جانباً باضطراب:

- أليس لديها أوامر أخرى! كان من الأفضل أن تنظّف أعشابهم بدلاً من أن تلقي أعمالهم على عاتق هذا وذاك.

نظرت أمّي إليّ بانزعاج وقالت:

- ما هذا الكلام الذي تقوله! حسناً، هي تريد منك أن ترشدها فحسب. ألم تكن تفعل ذلك من قبل؟

اتّجهت نحو باب الغرفة:

- أتعرفين يا أمّي؟ إننا مضطرون دائماً إلى أن نتجاوز عن حقّنا لأجل الآخرين.

قلت هذا وخرجت من الغرفة بعصبيّة، أعرف أنّ أمّي هي السبب في هذا كلّه. مرّت لحظات عدّة، بعدئذ فُتِح الباب وخرجت أمّي وهي ترتدي (تشادورها).

- أنا ذاهبة إلى منزل السيّدة أكبري.

اتّجهت نحو باب الدار دون أن تنتظر جواباً، رأيت ربطة الأعشاب في يدها. كان واضحاً من سرعتها أنّها منزعجة منّي. وقفت وسط باحة الدار قليلاً، نظرت إلى مرسمي، إنّه كصورة ملينا التي محاها الموج من الساحل، كأنّها لم تكن موجودة أبداً. كانت رسوم مينا لا تزال مبعثرة فوق السجّادة في الغرفة، لم تكن أمّي قد جمعتها. كانت تعرفني جيّداً، كانت تعرف أنّي دائماً أهدأ بعد الصياح والجلبة التي أحدثها وأفعل ما كانت تريده مني. نظرت إلى الرسوم بدقّة، كان العمل قد بقي فيه ذلك الحسّ البدائي، على الرغم من أنّه كان يمكن الإحساس بمحاولة التجديد من حيث الموضوع. كانت إحدى الرسوم عبارة عن وجه والدها الذي كان يحدّق بقلق في مكان ما في السماء، وكانت صورة أخرى لامرأة تنظر بحسرة إلى مذياع على شكل باب بيت، وأخرى كانت عبارة عن وجه الإمام.

نظرت إلى الفرشاة وقماشة الرسم، كنت قد شعرت بالشوق على الرغم من أنّي كنت أعلم أن لا فائدة من محاولاتي، لكن مع ذلك كنت أتمنى أن

أرسم على القماشة خطّاً على الأقلّ. جذبت الفرشاة نحوي بمرفقي، أردت أن أدنو برأسي منها لأمسكها بأسناني لكنّ شيئاً ما منعني؛ نوع من العناد والتمرّد بلا سبب، ربّما كان السبب هو الخوف من الفشل مرّة ثانية. ربما لم أكن أريد، أيضاً، أن تظنّ أمّي أنّ هذه الرسوم البدائية قد شجّعتني. خرجت من الغرفة كي لا أفكر مرّة ثانية، أغمضت عينيّ وأخذت نفساً عميقاً. راودني هاجس الرسم مرّة ثانية. أردت أن أعود إلى الغرفة، فإذا بباب الدار يُفتح وتدخل أمّي مضطربة. نظرت إليها بتعجّب، كان شكلها مضطرباً حتّى إنّي ذعرت. لم أكن قد رأيت أمّي مضطربة على هذا النحو قطّ. ألقت (تشادورها) على الحبل، وجلست وسط باحة الدار وأمسكت رأسها بين يديها. ظننت أن شيئاً ما قد حدث للسيّدة أكبري، كانت أمّي تهزّ رأسها وتبكي بصوت هادئ. لم يحتمل قلبي، فتقدّمت وسألت:

- ماذا حدث؟

رفعت رأسها، أرادت أن تقول شيئاً، لكنّها لم تستطع. في النهاية، قالت بصوت مرتعش:

- لقد ألقى رضا بنفسه من فوق جسر المشاة.

وضربت رأسها:

- مسكين يتيم الأمّ!

خارت قواي، لم أكن أستطيع تصديق ما سمعته، كأنّ ضربة قويّة كانت قد وجّهت إلى رأسي. سألتها:

- ماذا قلتِ؟

أمسكت أمّي جبينها بيدها وقالت منتحبة:

- الشابّ المسكين، ألقى بنفسه من فوق جسر المشاة.

لم أجرؤ على الحركة من مكاني، شعرت أنّ الخبر سيصبح حقيقة لو أتيت بحركة. لم أستطع أن أهضمه، مرّت لحظات عدّة فسألتها ثانية:

- ألقى نفسه إلى الأسفل؟ أنت متأكدة؟ رضا فعل هذا؟

مسحت أمّي دموعها:

- مسكين أبوه كم عانى من المرارة حتّى ربّاه!

قلت غير مصدّق:

- حين تحرّك القطار كنت هناك، لم يحدث شيء.

تنهّدت أمّي ونهضت من مكانها:

- لا أعرف متى حدث ذلك.

وقالت:

- نقلوه إلى مستشفى السكّة الحديديّة. اذهب إليه، اذهب يا حميد!

لم أكن أستطيع التصديق بعد أن شيئاً كهذا حدث لرضا.

قالت أمّي:

- بسرعة، اذهب، بسرعة!

كنت أتوقّع أن يعترضني أحد ما ويقول: إنّ هذه الأخبار كلّها من صنع وتلفيق ذهن فلان من الجيران. ربتت يد على ظهري:

- اذهب أنت، وأنا سآتي بعد بضع دقائق.

* * *

كانت باحة المستشفى كبيرة، وكان بضع أشخاص يجلسون على المقعد الخشبيّ جانب باب الدخول. كان أحدهم قد غطّى وجهه بيده وأخذ يبكي، والباقي ينظرون إلى مبنى المستشفى بانزعاج. ذهبت إلى الاستعلامات:

- عفواً! لقد نقلوا أحد أصدقائي إلى هنا، لقد سقط عن جسر المشاة!

سأل الرجل:

- ما اسمه؟

قلت بسرعة:

- رضا، رضا بهرامي.

كانت عيني مسمّرة على فمه، كنت أتوقّع أن يقول إنّهم لم يحضروا أحداً بهذه المواصفات إلى هنا.

- الطابق الثاني، الغرفة السابعة من الجهة اليمنى.

سألت بانزعاج:

- ألا تعرف كيف وضعه؟

رنّ جرس الهاتف، فأخذ السمّاعة وقال في الوقت نفسه:

- ليس لديّ معلومات.

ركضت نحو المصعد، لم أحتمل الانتظار فصعدت الدرج. حين وصلت كانت أنفاسي قد انقطعت. كان بضع رجال ونساء يقفون جوار الباب

الزجاجيّ في نهاية الممرّ. كان السيّد يحيى يجلس على الكرسيّ بجانب الباب بكتفين غائرتين وعينين تحدّقان إلى مكان غير محدّد، كأنّه كان يوشك على الانهيار. كانت امرأة تقف إلى جواره، كانت قد غطّت وجهها بالـ (تشادور) وكتفاها ترتعشان. لقد أصبح الخبر حقيقة بشكل مخيف. كان أحد زملاء السيّد يحيى يقف قبالته، وكان عدد من النساء يقفن جانب الباب.

- ترى أنّهما متشابهين، كلّ مَن...

وصلت إلى مسامعي الردود على السلامات المخنوقة.

- أترى أيّ بلاء جلبه رضا لنفسه يا سيّد حميد؟ ليجفف الله جذور كلّ أجنبيّ في هذه البلاد.

كان صوت السيّدة صمدي، وعلا صوت امرأة أخرى:

- إلهي آمين!

سألت مرتعشاً:

- كيف حاله الآن؟

لم يجبني أحد، لم أكن أعرف مَن أخاطب. علا صوت السيّدة صمدي ثانية:

- إنّه في غرفة العمليّات منذ ساعتين تقريباً.

وأشارت إلى الباب الزجاجي، فانعكست فيه صورتي.

تقدّمت، جلست القرفصاء جانب السيّد يحيى. نظر إليّ ذاهلاً مبهوتاً، وفجأة فقد السيطرة على نفسه. طوّق عنقي بيديه واحتضنني، فاختلّ توازني، سيطرت على نفسي بصعوبة. لم أكن أعرف ماذا أقول مواسياً له. أمسك زميله من كتفه وفصله عنّي:

- اضبط نفسك! لم يحدث شيء إن شاء الله.

- ماذا قال الطبيب ؟

رفع الرجل كتفيه:

- لم يقل شيئاً، حين أوصلناه إلى المستشفى أخذوه على الفور إلى غرفة العمليّات، وقد مرّت ساعتان حتى الآن.

كان عقرب الثواني في الساعة الجداريّة يتحرّك ببطء. ليتني لم أخرج من المحطّة، ربما كان بقائي سيمنع الحادثة.

سمّر نظرته الحزينة عليّ وقال:

- ليته كان قد استشهد في الجبهة، حينها سيكون قلبي سعيداً لأنّي قدّمته في سبيل الله، لكن ماذا الآن ؟

- ما هذا الكلام يا سيّد يحيى؟ لن يحدث شيء إن شاء الله.

فُتِح الباب الزجاجي، فنهضنا كلانا من مكاننا. كان الطبيب، يرتدي رداءً أخضر، قال لوالد رضا:

- للأسف! لقد تضرّر العمود الفقريّ بشدّة، فقد سحقت فقرات عدّة تماماً وتلاشت.

طأطأ رأسه:

- فعلت كلّ ما بوسعي، بعدها يجب التوكّل على الله.

غطّى السيد يحيى وجهه بيده، وضعت ابنته رأسها على كتفه واحتضنت والدها. رفعت رأسي، كانت أمّي قادمة.

* * *

قال رضا: «حين خلت المحطة رأيت ملينا تقف تحت جسر المشاة وتشير بيدها لأذهب إليها، بعد ذلك لا أعرف ماذا حدث أصلاً».

لم يكن أحد في الغرفة، كان رضا ممدّداً على السرير على ظهره، كان رأسه ويده اليمنى ملفوفين بضماد. اتجهت إلى سريره.

ما الأخبار في الخارج؟

جلست جانب السرير:

الجميع منشغلون بأنفسهم؛ لا أحد يفكّر بي ولا بك.

ضحك ضحكة مرّة.

عدت إلى الرسم ثانية!

أدنيت رأسي من الورقة؛ كان قد رسم وجهاً ممحوّاً لرجل.

صورة أيّ مسكين رسمت؛ وتلك أيضاً لم يكتمل نصفها!

نظر إليّ بغصّة. قال بعد لحظات عدّة من الصمت:

هذا أنا؛ إنني أُمحى شيئاً فشيئاً من ذهن ملينا.

جلست على الكرسي جانب السرير:

- ما هذا الكلام الذي تقوله؟ تأكّد أنّها ستتّصل بك من موسكو اليوم أو غداً.

تنهّد بصعوبة:

- تحدّث عن نفسك؛ ماذا فعلت مع الرسم؟

رفعت كتفيّ:

- يجب أن أجد لنفسي عملاً آخر.

ابتسم:

- لا تستطيع! ليس بمقدورنا، أنا وأنت، أن نفعل غير شيئين: العشق والرسم. مهما حاولنا لا نستطيع الفرار منهما. أنت قدّمت يديك، وأنا حياتي. لكن لم يحدث أن فكّرنا لحظة في أيّ منهما!

لم أكن أعرف ماذا أقول، فتابع:

- هل تذكر كيف كنت قد أتيت إليك في هذه المستشفى؟ حينها لم أكن أفكّر أنّي من الممكن أن أصل إلى ما وصلت إليه. أتعلم لِمَ؟ لأنّي كنت غافلاً عن أنّ قَدَراً واحداً قد كتب للعشاق جميعاً.

كان قد حدّق إلى السقف وعيناه مملوءتان بالدموع، ثمّ أدار وجهه إليّ وابتسم بصعوبة:

- إن أعطيتك عمري، بع لوحاتي وأعط ثمنها لوالدي. حاول أن تبيعها بثمن جيّد؛ لم يصب خيراً منّي، فربّما يمكن أن يساعده ثمن لوحاتي.

كانت رائحة الموت تفوح من كلامه. وقفت خلف النافذة، كانت سيّارة الإسعاف تقف أمام باب المبنى. فتح أحدهم باب السيّارة، ثمّ عاد ونظر إلى باب الدخول الخاصّ بالمستشفى. خفت من نظرته، فألصقت جبهتي بزجاج النافذة البارد وأغمضت عينيّ.

* * *

- كيف كان حاله؟

نهضت وجلست على حافة السرير:

- سيّيء! سيّيء جدّاً! وضعه النفسي منهار.

جلست أمّي جانبي:

- كنت تريد أن تشجّعه!

قلت: «يشعر أنّه قد فقد كلّ شيء، وليس لديه ما يتفاءل لأجله».

قالت أمّي بانزعاج: «هل حاولت ذلك أصلاً؟».

نهضَت عن السرير وتابعَت باللهجة نفسها:

- بهذه النفسيّة التي تمتلكها؛ لو كان يتفاءل بشيء ما، لأحجم.

أردت أن أقول: بالتأكيد ذاك الذي رمى رضا نفسَه عن الجسر للوصول إليه لم يكن ملينا، بل كنت أنا!

كنت أعرف سبب انزعاجها؛ فقد أرادت مرّات عدّة أن تستدرجني للحديث عن مينا، لكنّي كنت أتهرّب وأغيّر مجرى الحديث.

تمدّدت على السرير مرّة أخرى، لم تكن لديّ الرغبة في أيّ شيء. تذكّرت الصورة التي رسمها رضا عن نفسه؛ «هذا أنا. إنّني أُمحى شيئاً فشيئاً من ذهن ملينا».

ألصقت وجهي بالوسادة. أنسيتني يا إلهي فتركتني هكذا عاجزاً وضعيفاً؟ لِمِ لا تذكرني؟ لم لا توقظ ذاك الهيجان في قلبي! قدَري أيضاً أنّني يائس وقانط كرضا، أتكلّم عن الموت والعدم؟ هل نهاية العشّاق جميعاً أنهم فقدوا

احتراقهم ووجودهم في طريق العشق حتى أصبحوا محرومين من اهتمام المعشوق وعنايته؟

فُتِح الباب، فنمت على بطني وألصقت وجهي بالوسادة، لم أكن أريد لأمّي أن ترى دموعي. مرّت عدّة لحظات، ذهبت أمّي. كانت السماء الصافية تظهر في النافذة.

* * *

جلست على مقعد جانب بركة المتنزّه الكبيرة، شعرت بتعب عجيب. كنت قد تحمّلت ضغطاً نفسيّاً عجيباً في الساعات الماضية. لقد أتوا إليّ من مقرّ التعبئة في الصباح لأقيم، هذه السنة أيضاً، دورة رسم وتصميم في المقرّ. لم أعرف ماذا أقول، لم تكن لديّ الثقة الكافية بالنفس. لم يقبلوا كلّ ما قدّمته من أعذار، في النهاية أُجبرت على أن أريهم كمّيّ الخاليين وأقول: الأستاذ نفسه يجب أن يرسم الصورة ويسير خطوة بخطوة مع تلاميذه، وأنا ليس لديّ القدرة على هذا الفعل. لم يقبلوا أيضاً، وأعطوني مهلة شهر. كان تعاملهم معي كما لو كنت الرجل نفسه الذي كان في السنة الماضية.

- تنحّ جانباً قليلاً يا سيدي!

كان إلى جواري خمسة رجال مسنّين يجلسون بعضهم إلى جانب بعض، كانت باقي مقاعد المتنزّه قد امتلأت بالرجال المسنين المتقاعدين والعاطلين عن العمل.

- أهلاً بك في مجمعنا!

تحرّكت في مكاني، فابتسم الرجل العجوز الجالس جانبي بشفقة:

- اجمعوا أيديكم وأرجلكم ليجلس هذا السيّد مرتاحاً!

التفت إليّ ثانية:

ماذا حدث ليديك يا ولدي؟

مثلهم، كنت أجلس عاطلاً على الكرسي:

- ارتح يا ولدي؛ فكلّنا يشبه بعضنا بعضاً!

لم أستطع أن أبقى هناك، فاعتذرت. لقد ذعرت لرؤية أولئك الأشخاص العاطلين كلّهم؛ الأشخاص الذين قبلوا أن يكونوا عاجزين ولا قدرة لهم على فعل شيء، لذا كانوا قد أتوا في هذه الساعة من النهار إلى المتنزّه لقتل الوقت. انزعجت من نفسي لأني اتّخذت هيئة العاجز المثير للشفقة لإقناع الشابّ الذي أتى من مقرّ التعبئة. ليته كان قد أصرّ حتى أقبل، لكنت قد بدأت دورات القسم النظريّ بأسرع وقت.

بعد خطوات عدّة إلى الأمام كان قد وضع ملصق مباراة بكرة السلّة خاصّ بمصابي الحرب. كم كنت أشتاق إلى حبيب، إلى وجوده المملوء بالإيمان والحوافز وإلى حياته الهادفة. إنّ ما حدث لرضا جعلني لا أجد الفرصة لزيارته، كانت المباراة بعد الظهر.

لم أرَ حبيباً في الصالة، لم يشارك أيّ فريق من مصحّ حبيب. حين وصلت كانت المباراة في الشوط الثالث، كان أحد الفريقين ضعيفاً لدرجة أنّ المباراة انتهت أسرع ممّا توقعت. خرجت من الملعب، كان زامور سيّارة العروس المتتابع يملأ الشارع الرئيسيّ، وانعطفت السيّارة في أحد الشوارع الفرعية.

- البارحة كان زفاف أحد مصابي الحرب، أي جلبة وضوضاء كانوا قد أقاموا في الطريق.

ضحكت من ذلك. كان المصاب الذي كان يتكلّم عليه المعلم عباس يمكن أن يكون حبيباً لحماسه وحيويّته وحاله، ويبدو أنّه قد وضع برنامجاً لمئة سنة قادمة. كنت خائفاً من أن يصدق توقّعي، وألّا يعلم أحد شيئاً عن وضعه ومكانه الجديدين. كانت باحة المصحّ خالية وكانت الحديقة مملوءة بالورد الجوري، فانحنيت وشممت أجملها لوناً بوجودي كلّه. ليتني كنت أستطيع أن أقطفها. كانت غرفة حبيب الأولى بعد منعطف الممرّ، كان أشخاص عدّة في الممرّ المقابل يتحدّثون معاً. وقفت أمام الغرفة وطرقت الباب بكتفي، كانت الغرفة تبدو فارغة للوهلة الأولى، لكن حين تدقق النظر تعلم أنّ أحدهم قد تمدّد على السرير الأخير. فتح موسى عينيه، فضحكت:

- السلام عليكم! كيف أنت؟ هل كنت تحلّ الرياضيّات؟ أين حبيب؟

لم يقل شيئاً، أردت أن أصفّق.

- ألم تستطع أن تخبرني؟ حسناً! أنا قريب منك جدّاً. لو كنت في مدينة أخرى لا أظن أنّي كنت سأعلم أصلاً.

عضّ على شاربه:

- صدّقني أنّ الأمر حدث فجأة. بالتأكيد كان يعرف من قبل، لكنّ الوقت لم يكن معروفاً بدقّة. نحن أيضاً عرفنا بالأمر إلى حدّ ما، لكنّه لم يكن يسمح لأحد أن يتحدّث عنه.

قلت ضاحكاً: «لقد كان متكتّماً منذ البداية، هو مع من الآن؟ أنا أعرفه».

قفز موسى متعجّباً:

ماذا تقصد؟

اقتربت أكثر:

«الزفاف يا عمّ!».

نظر موسى إليّ مبهوتاً، ثمّ غاص بوجهه في الوسادة.

سألت بتعجّب:

- لا داعي للبكاء. «ألم يكن يزرك أنت أيضاً؟».

رفع رأسه، كان الدمع قد بلّل وجنتيه:

- لقد استشهد حبيب.

نظرت إليه مبهوتاً مدهوشاً؛ أيمكن لحبيب أن يستشهد؟ لم يكن بإمكاني أن أصدّق. كانوا قد وضعوا صورته فوق السرير، كانوا قد كتبوا تحتها: «الشهيد حبيب طهوري». اندفع الدمع إلى عينيّ، أكان بإمكاني أن أصدّق أنّ حبيباً قد ذهب؟

- متى؟ كيف؟

هزّ موسى رأسه وقال:

- قبل أسبوعين، كان يرغب جدّاً في رؤيتك. كان جسده قد تعفّن. في البداية تعطّلت كليتاه، ثمّ قلبه وكبده. كان يعرف منذ البداية أنّه ذاهب. أنت ماذا فعلت؟

سألته بتعجب:

- بِم؟

- بالرسم. كان حبيب يقول إنّك ستقيم معرضاً خاصّاً بالمقاتلين والحرب. إلى أين وصلت؟

خنقتني العبرات، فقلت بصعوبة: «لا أعرف! لا أعرف شيئاً!».

ألصقت وجهي بغطاء حبيب، ما زالت رائحته تفوح منه.

تنحنح وقال:

- نريد أن نقيم معرضاً خاصّاً بشهداء المصحّ، لو تساعدني تكون قد قدّمت لي خدمة كبرى!

رفعت رأسي:

- أيّ مساعدة بإمكاني أن أقدّمها؟

- ارسم لنا لوحتين ليوسف وحبيب؛ لقد كنت في الجبهة معهما وشعرت بهما على نحو كامل.

تابع بعد صمت:

- فكّر بي أنا أيضاً إن كان بإمكانك.

نظرت إليه وقلت بانزعاج:

- أنت ترى وضعي، لا أستطيع فعل شيء؛ أيّ شيء!

نظر موسى إلى صورة حبيب:

- قال لي حبيب أن أقول لك، أنا أدّيت مهمتي لا غير.

سألته:

- متى قال لك؟

- في اليوم السابق لشهادته. قلت إنّ الأمر صعب بالنسبة إليك، لكنّه قال إنّه بإمكانك أن تتدارك الموضوع.

كان قد ظهر فراغ جديد في حياتي. لم يكن سقوط رضا وشهادة حبيب قد أبقيا لي رمقاً.

كنت أستطيع أن أتنفس بصعوبة، قلت:

- سأزورك.

لم أكن قد خرجت من الغرفة حين صرخ موسى:

- المعرض بعد شهرين!

* * *

كان عليّ أن أحدّد ما أريد فعله؛ حين لا يكون بالمقدور إنجاز أمر ما، فإنّ الإصرار الزائد على الحدّ على إنجازه ما من نتيجة له غير تحمّلٍ غير منطقيّ للضغوط النفسيّة المدمّرة، وفي النهاية سيطرة الإحساس بالفراغ والعبث على حياتك كلّها.

كانت هذه هي النهاية التي وصلت إليها، نظرة مملوءة بالنفور والتقزز، لا غير، إلى قماشة الرسم البيضاء التي كانت قد ملأت صفحتها خطوط متداخلة بلا شكل. يجب أن يملأ الهدوء والراحة وجودي كلّه. تمدّدت على السرير، أتغاضى عن الحشد الكبير الذي أراه حولي بتعجّب وحيرة. أنا أسير وعاجز في صحراء قاحلة.

أين هنا ؟ وماذا أفعل هنا؟ هذا الحشد ما شأنه بي؟ أنظر إلى الجميع بفضول، أرى يوسف وقد وقف حبيب إلى جانبه، وعلى جهته الأخرى أكبري. كلّهم أصدقائي، كلّهم أحياء ومعافون. أريد أن أصرخ لكن لا أستطيع، لساني ثقيل ومتجمّد. لقد سمّروا أنظارهم عليّ بأشكال واجمة وحزينة وبصمت مطبق. أخاف نظرتهم، أشعر أنّي أذوب تحت ضغط نظراتهم المملوءة باللوم لحظة بلحظة. أنكمش، أريد أن أسأل عن سبب صمتهم المطبق ونظرتهم المرّة. أنا عاجز عن هذا الفعل أيضاً. كأنّ قدميّ قد أصبحتا جزءاً من الأرض ولا يمكنهما الانفصال عنها. يمسك حبيب قماشة الرسم بيده وينظر بلذّة عجيبة إلى خطوطها المتداخلة التي لا شكل لها ولا لون، يحتضن اللوحة ويقبّلها. ثمّ يبتعد يوسف وأكبري وباقي الحشد عنّي بصمت بارد مطبق، فأنظر إليهم بيأس، يصبح وجودي كلّه مملوءاً بوجودهم. لا تصدر عنّي أيّ كلمة أو حركة في محاولة التواصل معهم. أتأسّف بتنهيدة قصيرة. كلّما ابتعدوا عنّي يصبح الجوّ أكثر مرارة والأرض أكثر جفافاً وحرارة. يتلوّى ألم في داخلي ويشتدّ لحظة بلحظة ويصبح أكثر عذاباً. الألم الذي لفّني جعل صدري يتصدّع. يخرج قلبي من صدري ويلحق بهم وهو يقطر دماً. بعد لحظة يذوبون كلّهم في الأفق الدامي ويتركونني وحيداً بلا ملاذ في صحراء قاحلة جرداء. لم يبق لي قلب للحبّ والعشق ولا دافع للحياة والعيش. صدري فارغ ومتحلّل، وجسدي بارد وجافّ. يقبض الألم على خلايا جسدي جميعها ويشتدّ في كلّ لحظة. أريد أن أصرخ، أفتح عينيّ مذعوراً. كان مصباح الغرفة مضيئاً، وكانت أمّي تجلس قلقة ومضطربة إلى جواري. نهضت من مكاني نصف نهضة. لم يكن الصبح قد طلع، الاثنتان مكانهما. كان هناك خفقان قويّ وسريع للقلب لأول مرة، وكانت رؤية

القماشة ذات الخطوط تمنحني الهدوء، لكن ما زلت أشعر بالألم في خلايا جسدي جميعها. قبّلت أمّي جبيني:

- خيراً إن شاء الله؟

اتّجهت إلى قماشة الرسم. خوف البقاء وحيداً في تلك الصحراء القاحلة، وخوف فقد كلّ ما أحبّه قد جعلاني مضطرباً. كان يجب أن أبدأ مرّة ثانية، ليس لأجل الكسب بل لأجل عدم الفقد. كان الخوف والألم لا يزالان يرافقاني. استقرّت يد أمّي على كتفي وقبّلت وجهي ثانيةً. لقد أصبحت في الغرفة وحيداً بعد لحظة، رسمت خطوطاً على القماشة حتى أذان الفجر؛ خطوطاً بلا شكل ولا معنى، كما في السابق، دون أن تكون هناك دقّة كامنة فيها أو معنى محسوساً خلفها، لكنّ الخوف من الفراغ والبقاء وحيداً كان يمنعني من الهبوط والتراجع. كان الخوف قد ضرب جذوره فيّ بشكل لا يدع معه مجالاً للتعب. نامت أمّي وبقيت يقظاً، بدأت بالصفحة البيضاء التي كانت أمّي قد ألصقتها على اللوحة. كنت أشعر للحظة أنّي لا أستطيع أن أفصل نفسي عن الفرشاة والألوان المائيّة. أردت أن أرتاح، لكنّي خفت من رؤية ذلك الكابوس مرّة ثانية.

قرب الظهر لم أستطع أن أبقي عينيّ مفتوحتين لحظة، وحين استيقظت كانت أمّي قد أتت:

- كيف تسير الأمور؟

رفعت كتفيّ

- لا أعرف!

كانت أسناني وكتفي تؤلمني. حين جُمِعَت المائدة بدأت ثانية. كنت قد أبعدت عنّي توقّع تعويض ما فقدت بسرعة كبيرة. كان الخوف من الإحباط والتمرّد والخوف من الابتعاد عن العشق قد منحاني الصبر. كان يجب عليّ أن أقطع المراحل كلّها درجة درجة. لأجل أن أرسم صورة وأوجد تنوعاً في عملي رسمت شمساً أعلى الصفحة، بتلك البدائيّة الموجودة في رسم الأطفال. أغمضت عينيّ، فكّرت بالقلب الدامي الذي كان يبتعد عنّي واللوحة التي قبّلها حبيب وضغطها إلى صدره. ألصقت وجهي بالطاولة، رفرفت ذكرى رضا في داخلي.

* * *

كان مستلقياً على ظهره على السرير، اقتربت منه:

- سلام!

أدار نظره نحوي:

- سلام، لا نراك!

لم أعرف ماذا أقول.

- لقد استشهد حبيب.

نظر إليّ بتعجّب. جلست على الكرسيّ جانب السرير:

- كان قائد الهضبة حين انفصلنا في مريوان.

تنهّد بصعوبة:

- لم أكن أريد أن أزعجك.

ضحك ضحكة مرّة:

- العشق يعطي بعض الناس كلّ شيء، ويأخذ من بعضهم كلّ شيء.

وتابع:

- أنا من أيّهما؟

- لم أكن أريد أن يصل البحث إلى هنا. دع هذا الكلام. المهمّ هو كيف حالك؟

قال بهدوء: «إنّي أموت!».

تسمّرت مكاني:

- ما هذا الكلام؟

تابع دون أن يبالي بكلامي:

- أشعر بحضوره. إنّه يملأ وجودي شيئاً فشيئاً.

صرخت: «لا تلقّن نفسك عبثاً، لقد تضرّر ظهرك فحسب، وبعد مدّة سيتحسّن».

حرّك يده بصعوبة ووضع أمامي ورقة، كانت الصفحة بيضاء تماماً، قلت: «حسناً! ماذا تعني الورقة البيضاء؟» قال: «هذا أنا. الآن قد محيت تماماً من ذهن ملينا. ليس هناك أيّ ذكرى لعشقي في خاطرها».

نهضت من مكاني:

- «دعك من هذا الكلام! بدل هذه الأشياء فكّر بذلك الأب التعيس الذي يكاد يقضي نحبه خوفاً».

كان قد أغمض عينيه، كأنّي لا أتكلّم معه.

- مثلاً أنا أتكلّم معك.

فتح عينيه، كانتا مملوءتين بالدموع.

- أتمنّى أن أقبّلك!

استقرّت نظرتي في عمق عينيه، انحنيت نحوه. حين لامس وجهي وجهه بكيت أنا أيضاً.

* * *

كان رضا قد رسم لنفسه صورتين؛ رجل كان يُمحى وورقة بيضاء ليس فيها أيّ أثر لذلك الرجل.

بعد موت رضا كنت أتمنّى أن أنظر إلى هاتين الصورتين فحسب. كنت أرى فيهما رضا الذي ذاب بسهولة.

- كيف كانت الدورة؟

- لا بأس! أخذت القسم النظريّ فحسب. أنا راضٍ.

نظرت أمّي إلى الرسوم على الطاولة.

- كيف يسير العمل؟

- إني أعوّد دماغي وأسناني في الوقت الحاضر لينسّقا معاً.

وضعت أمّي مغلّفاً أخضر على الطاولة:

- إنها رسوم مينا. ألقِ نظرة إليها حين تجد الفرصة.

لم أقل شيئاً. ذهبت أمّي إلى المطبخ.

- سيجهز الغداء الآن.

دققت نظرتي ثانية في رسمتَي رضا. كان حلم صدري الذي كان بلا قلب يملأ ذاكرتي، وهذا الصدر نفسه كان يمتلئ بالعشق بهدوء تام.

* * *

كان الرصيف العريض في الجهة الأخرى من الشارع مملوءاً بالناس. عبرت الشارع، كان الجميع يجلسون على الأرض. كان هناك مرشد واقف يقرأ قصّة مستعيناً بالصور. لم تكن قصّة من الشاهنامة، بل كانت إحدى رسومي. كان الجميع يصغون إلى المرشد بحسرة واضطراب كبيرين. كان بضع أشخاص يضعون رؤوسهم على ركبهم ويبكون، بعضهم الآخر كانوا قد غصّوا وأخذوا ينظرون إلى لوحتي بحزن. عرفت يوسف وأكبري وحبيباً. كانت وجوههم مبلّلة بالدمع. ناديتهم، كانوا غارقين في كلام المرشد حتّى إنّهم لم يسمعوا. كان المرشد يتحدّث بحرارة وحزن عن حماسة كبرى وحرب كادت تنسى. جلست كالآخرين على الأرض وحدّقت في اللوحة. كانت صورة صحراء قد ملأ جهتها اليسرى نخيل محترق، وفي الحدّ الفاصل بين النخيل والصحراء خمس دبابات معطّلة غابت في الرمال. كانت الصحراء هي حقل الألغام بأرضه الملتهبة والمتصدّعة، وكان ثلاثة أشخاص يبحثون عن السكينة في حقل الألغام تحت نور الشمس الذهبيّ الذي كان يصعد.

فهرس

الصفحة

الفصل الأول ٥
الفصل الثاني ٩
الفصل الثالث ٢٥
الفصل الرابع.. ٣٣
الفصل الخامس ٤١
الفصل السادس ٥١
الفصل السابع ٧١
الفصل الثامن ٨٩
الفصل التاسع ١٠١
الفصل العاشر ١١٣
الفصل الحادي عشر ١٢٣
فهرس ١٤٧

داريوش عابدي
(١٩٤٧-....)

- كاتب إيراني معاصر.
- كُرِّم في مهرجان الإيثار والأدب الملتزم الأوّل.

من أعماله المؤلفة:

- أحداث تلك الليلة.
- جدّي الطيّب.
- الجزيرة.

د. ندى حسّون

- مترجمة سورية.

- حائزة شهادة الدكتوراه في اللغة الفارسية وآدابها من جامعة طهران.

- أستاذة في قسم اللغة الفارسية وآدابها - جامعة دمشق.

من أعمالها المترجمة:

- أسطورة العشق (مجموعة قصصيّة).

- أسطورة السعادة (مجموعة قصصيّة).

- أزرق ولكن بلون الغروب (مجموعة قصصيّة).

٢٠٢٢م